مَلامح
من تطور المغرب العربي

في بدايات العصور الحديثة (*)

الأستاذ محمد المنـــوني

ظهرت بوادر التحرك الأجنبي نحو المغرب الكبير ، مع مطالع المائة الهجرية التاسعة ، أو عند بداية القرن الميلادي الخامس عشر ، وسنتبين أن إسبانيا قامت في التاريخ ذاته بنسف مدينة تطوان ، ليأتي بعدها دور الاعتداء البرتغالي على سبتة عام ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م .

وهذا التاريخ سيكون — على العموم — هو منطلق الفترة المعنية بالدراسة التي نعرضها ، حتى تنتهي بعد حدث الجلاء الأندلسي الأخير عام ١٠١٨ هـ / ١٦٠٩ م .

(*) أعد برسم المؤتمر الأول لتاريخ المغرب وحضارته ، المنعقد بتونس : ٢٤ - ٢٩ ديسمبر ١٩٧٤ م .

إن المصادر والمراجع التي يتكرر النقل عنها ، يكتفى - في المرة الأولى - بذكر المعلومات الضرورية للتعريف بها : المطبعة أو مكان المخطوط ورقمه ، فضلاً عن اسم المؤلف إن وجد دون أن نكون بحاجة إلى إعادة هذه التوضيحات عندما يتكرر الرجوع إلى نفس المصدر أو المرجع .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مع ملاحظة أن هذا العدوان المزدوج ضد الشمال الافريقي ، لم يبلغ حدّته إلا عندما أطلّت فترة العصور الحديثة ، بعد فتح القسطنطينية عام ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م .

* * *

أما المغرب المعني بهذه الدراسة فهو يستوعب مفهومه الواسع ، ليشمل كلًا من ليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى .

* * *

وقد عرفت هـــذه المنطقة ــ خلال الفترة المشار إليها ــ أربعة أحداث بارزة :

- الغزو الأجنبي .
- الهجرات الأندلسية .
- الوجود العثماني .
- وفادات من جنسيات أخرى .

وهدف هذه المحاولة شرح أثر تلك الأحداث في تطوير المظـــاهر الحضارية للمغرب الكبير ، غير أنه سيكون من المناسب التمهيد بمدخل عن طبيعة الأحداث ذاتها ، ثم رد الفعل المغربي ضد التدخل الأجنبي .

وقد جاءت غارات البرتغاليين والإسبان على السواحل المغربيـة في مقابل انتصارات العثمانيين على أوربا وبدأت المعركة ــ أول الأمر ــ من المغرب الأقصى عند الساحل المغربي للمتوسط ، وامتدت بعد ذلك ــ متجهة نحو شـرق الســاحل نفسه ، وإلى الشاطىء الأطلسي ، وعندمـا اشتدت المعركة تدخل البابا الإسكندر السادس عام ٨٩٩ هـ / ١٤٩٤ م ، وفض النزاع بين الدولتين المعتديتين ، فصـار معظم المغرب الأقصى من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

نصيب البرتغال ، بينما يختص الإسبان ببقية المغرب الكبير (١) .

ومن المؤكد أن الحملة صارت تهدف إلى الاستيلاء على الشمال الافريقي عن طريق احتلال الشواطىء ، حتى ينحدر المغرب الكبير إلى التنصير أو الإبادة .

ومما يفسر هذا أن مدينة مراكش صارت مهددة باحتلال البرتغاليين بعدما تمكنوا من التسرب إلى نواحي أكادير .

ومدينة فاس - بدورها - كانت هدف جيوش سيبيستيان في موقعة وادي المخازن ، ومن الثابت أن الغزاة - في هذه الحملة - أعدوا صلباناً ليقوموا بتعليقها قريباً من مساجد فاس ومراكش (٢) .

وفي الجزائر كان الإسبان قد توغلوا - فعلاً - إلى تلمسان ونواحيها ، وهي نفس الخطة التي كانت مبيتة ضد بقية الشمال الافريقي .

* * *

وقد استمرت عمليات الغزو - على مستوى المغرب العربي - قرابة قرن ونصف القرن ، وبدأت بطيئة متقطعة ، ثم تصاعدت بعد فتح القسطنطينية والقضاء على بيزنطة عام ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م .

---

(١) كان هذا من مستتبعات معاهدة توردیسیلاس Torde Sillas ، وهناك وثيقة عن مراحل وتفاصيل هذا الاتفاق ، حيث أثبتها محمد بن تاويت التطواني ، في موضوع : « من زوايا التاريخ المغربي » ، مجلة « تطوان » : العدد السابع ، ص ١٠٥ — ١٠٦

(٢) محمد الفاسي : « موقعة وادي المخازن الحاسمة » — مجلة « البحث العلمي » العدد التاسع ، السنة الثالثة ، ص ٢٢٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكانت الأسبقية لإسبانيا ، فقامت بتخريب تطوان القديمة عام ٨٠٣ هـ / ١٤٠١ م [١] .

وبعد هذا تسلسل احتلال البرتغاليين لشواطىء المغرب الأقصى حسب التواريخ التالية :

سبتة : عام ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م — القصر الصغير : ٨٦٣ هـ / ١٤٥٨ م

طنجة : ٨٦٩ هـ / ١٤٦٤ م — أنفا : ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م

أصيلا : ٨٧٦ هـ / ١٤٧١ م — البريجة : ٩٠٧ هـ / ١٥٠٢ م

أكادير : ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م — أسفي : ٩١٢ هـ / ١٥٠٦ م

أزمور : ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م — المهدية : ٩٢٠ هـ / ١٥١٥ م

أما مدينة مليلية فقد احتلها الإسبان عام ٩٠٣ هـ / ١٤٩٧ م ، وعادوا لاحتلال بادس عام ٩٧١ هـ / ١٥٦٤ م كما استولى هؤلاء في بقية الشمال الافريقي على مجموعة أخرى من القواعد والمدن ، منها :

بونة « عنابة » عام ٨٦٧ هـ / ١٤٦٣ م

المرسى الكبير ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م — وهران : ٩١٥ هـ / ١٥٠٩ م

بجاية : ٩١٥ هـ / ١٥٠٩ م — طرابلس : ٩١٦ هـ / ١٥١٠ م

تونس : ٩٤١ هـ / ١٥٣٤ م

* * *

وقد كان من عواقب هذه الغارات المزدوجة على المغرب الكبير ، انحسار نفوذ الحكام الوطنيين إلى الداخل ، وأفضى الوضع بالمغرب الأقصى

---

(١) « الاستقصا » نشر دار الكتاب بالدار البيضاء ، ج ٤ ص ٨٩ ـ ٩٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

إلى استبدال السعديين بدولة بني وطاس ، وهؤلاء حولوا العاصمة من فاس إلى مدينة مراكش . وفي باقي المغرب الكبير حل العثمانيون مكان الحكام الوطنيين ، وانتقلت عاصمة المغرب الأوسط من تلمسان إلى مدينة الجزائر ، بينما دمر كثير من معالم تونس العاصمة .

ومن جهة أخرى تدهور الاقتصاد الداخلي ، وتقلص ظل التجارة الخارجية نتيجة احتكار المحتلين للمبادلات مع الخارج ، وتدفق بضاعتهم على الداخل ، زيادة على أن المغرب أخذ يتحمل تكاليف حرب دفاعية طويلة المدى .

هذا إلى أنه وقع القضاء على الحياة الحضرية في المدن التي وقع تخريبها على ساحل المتوسط أو المحيط ، ومـــا أعيد بناؤه منها جاء على الطراز الأجنبي .

وقد أثرت هـذه الحملات في سير الثقافة على العموم ، ففترت الهمم وانصرف أهل العلم إلى الجهاد أو الدعوة له بدلاً من الانقطاع للتعليم أو التعلّم ، وكانت نكبة تونس أكبر ، فتوقفت الحركة العلمية في مجموع القطر بعد إعلان الحماية الإسبانية ونزح كثير من أعلام الخضراء إلى المشرق أو المغرب (١) .

أما محنة الكتب العلمية وخزائنها فكانت من أعظم الفواجع ، فاستولى

---

(١) « تتمة شجرة النور الزكية » لمحمد بن محمد مخلوف التونسي : المطبعة السلفية بالقاهرة ، ص ١٥٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

البرتغاليون على ما كان بسبتة من الكتب بعد احتلالها (١) ، وفي تلمسان عبث الإسبان بمؤلفات العلم والدين بها (٢) ، والكارثة الكبرى هي التي حاقت بخزائن تونس العاصمة بعد الحملة الإسبانية الثانية عام ٩٨٠ هـ / ١٥٧٢ م ، وعن هذا التاريخ يقول ابن أبي دينار (٣) .

« . . . وفي تلك الأيام أهين المسجد الأعظم « الزيتونة » ، ونهبت خزائن الكتب التي به ، ودرست بأرجل الكفرة معالم المدارس ، وتفرق ما جمع فيها من دواوين العلوم ، وتبددت في الشوارع ، حتى قيل : إن المار من شرقي الجامع إنما يمر على الكتب المطروحة هناك » .

قال ابن أبي الضياف (٤) : « وهذا هو السبب في قلة تآليف الفحول

---

(١) يقول ابن حجر العسقلاني في هذا الصدد : « ... ونقلوا ما كان بها حتى الكتب العلمية ، وكان بها منها شيء كثير إلى الغاية » - « إنباء الغمر » : مطابع الأهرام التجارية بالقاهرة ، ج ٣ ص ٤١ ، وعبارة عبد الحي بن العماد الحنبلي « ... وأخذوا ما كان بها من الأموال والذخائر حتى الكتب العلمية » ، « شذرات الذهب » : نشر مكتبة القدسي بالقاهرة ج ٧ ص ١٢٤

ويلاحظ أن المصدرين يؤرخان الاعتداء على سبتة بعام ٨١٧ هـ ، خلاف الوارد في المصادر المغربية والأجنبية ، حيث كان تاريخ الحادث هو ١٥ جمادى الآخرة عام ٨١٨ هـ ، الموافق ٢١ غشت ١٤١٥ م .

(٢) « تاريخ الجزائر العام » تأليف عبد الرحمن بن محمد الجيلالي : المطبعة العربية بالجزائر ، ج ٢ ص ٢١١

(٣) « المونس ، في أخبار إفريقية وتونس » : مطبعة النهضة بتونس سنة ١٣٥٠ هـ ، ص ١٥٧

(٤) « إتحاف أهل الزمان ، بإخبار ملوك تونس وعهد الأمان » : المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ، ج ٢ ص ١٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

من أهل هذا القطر ، فإنها ضاعت شذَر مذر في هذه الواقعة » .

وبعد هذه الغارات المسلحة على الكتب والمكتبات ، بدأت في الفترة ذاتها حملات من نوع جديد - لابتياع المخطوطات المغربية واختطافها لتنقل إلى أوربا ، حتى جاء في تاريخ الوافي في المسألة الشرقية : أن من مكتبة فاس والعراق اغتنت مكاتب أوربا(١) .

ومن جهة أخرى : فـــإن هذه النكسة استتبعت انحلالاً خلقياً وعقائدياً ، فشاعت البدع ، وظهرت جماعات منحرفة مثل الطائفة اليوسفية بالمغربين (٢) . والشابيين بتونس (٣) ، زيادة على تفاقم بدع طائفة العكازين بالمغرب الأقصى (٤) .

* * *

(١) نقله في خاتمة التراتيب الادارية : المطبعة الوطنية بالرباط ، ج ٢ ص ٤٥٥

(٢) تعرف - أيضاً - بالشراقة (بتشديد الراء) ، وهم فرقة من أتباع الامام الجليل أبي العباس أحمد بن يوسف الراشدي المليانى ، المتوفى عام ٩٢٧ هـ ، وقد انحرف هؤلاء عن طريقة أستاذهم الذي كان إمام سنة وهدى ، ويقول عنهم ابن عسكر :

« ... ولم يكن - اليوم - بالمغرب من طوائف المبتدعة سوى هذه الطائفة .. ولقد أشار الفقهاء على السلطان الغالب بالاعتناء بحسم مادة فساد هذه الطائفة ، فسجن جماعة منهم وقتل أربعة آخرين ، وهؤلاء المبتدعة ليسوا من أحوال الشيخ (أبي العباس المليانى) في شيء ، بل فعلوا كفعل الروافض والشيعة في أئمتهم » - « دوحة الناشر » ، المطبعة الحجرية الفاسية عام ١٣٠٩ هـ ، ص ٩٢

وقـد شنع عليهم ابن القاضي بدوره ، وأفاد ظهور فرق مبتدعة جديدة لعهده ، زيادة على الطائفة اليوسفية ، وهو يقول في هذا : « ... إذ هم أحلوا ما حـــرَّم الله تعالى ، وقد اختلقوا بدعتهم : من ترك الصلاة والصوم واستباحة =

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وعن ردّ الفعل المغربي : كان واقع الحملات البرتغالية والإسبانية قد أذكى في مجموع الشمال الافريقي روحاً نضالية جديدة ، ونشبت المعركة - في بداية الأمر - على النطاق الشعبي ، امتداداً من المغرب إلى ليبيا ويقول الناصري[1] عن المغاربة :

« ولما نزل بأهل المغرب الأقصى ما نزل من غلبة عدوّ الدين ،

= الزنا والدياثة والعياذ بالله ، أذلهم الله وأخزاهم ، وغير هذا مما الشيخ منزّه عنه ، رحمة الله عليه ، وهي طائفة من الطوائف المعدودة بالمغرب ، التي خرجت عن الحق إلى الزيغ - « درة الحجال » : المطبعة الجديدة بالرباط ، رقم ١٩٠

وانظر - أيضاً - عن الطائفة نفسها : « مرآة المحاسن » لأبي حامد محمد العربي الفاسي : المطبعة الحجرية الفاسية - ص ٢٢٤ مع « الاستقصا » ، ج ٥ ص ٥٠ - ٥١

(٣) هم أتباع الشيخ عرفة : المرابط القيرواني وجدّ الشابيين ، انظر عنه « المؤنس » ص ١٤٤

(٤) للتعريف بهذه الطائفة ، ارجع إلى محمد المنوني : « التيارات الفكرية في المغرب المريني » - مجلة « الثقافة المغربية » ، العدد الخامس ، ص ١٢٩ - ١٣١

وبالإضافة إلى هذه الطائفة وسابقتيها عرف جنوب المغرب الأقصى نحلة المغيطي : عمرو بن سليمان السياف الشيظمي ، المتوفى قرب عام ٨٩٠ هـ ، وكان قد جمع الجموع على الجهل والفساد والخروج عن الحق ، وسمى أصحابه بالمريدين بضم الميم ، قال الشيخ زروق : وما احقهم بالفتح .

انظر عن نحلة المغيطي : « المعيار » للونشريسي : المطبعة الحجرية الفاسية - ج ٢ ص ٣٠٨ - ٣٠٩ مع « ممتع الأسماع » لمحمد المهدي الفاسي ؛ نفس المطبعة عام ١٣٠٥ هـ : الملزمة الثانية ص ٤ - ٦

(١) الاستقصا ، ج ٤ ص ١١١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

واستيلائه على ثغور المسلمين ، تبارَوا في جهاده وقتاله ، وأعملوا الحيل والرجل في مقارعته ونزاله ، وتوفرت دواعي الخاصة منهم والعامة على ذلك ، وصرفوا وجوه العزم لتحصيل الثواب فيما هنالك ، فكم من رئيس قوم قام بنصرة الدّين غيرة واحتساباً ، وكم من ولي عصر وعالم مصر باع نفسه من الله ورأى ذلك صواباً ، حتى لقد استشهد منهم أقوام وأسر آخرون وبلّغ الله تعالى جميعهم من الثواب ما يرجون » .

وفي بقية المغرب العربي هبت القوى الشعبية للمقاومة ، واستعانوا بالعثمانيين ، لتنظيم الجهاد ضد المعتدين .

وهكذا : فإن علماء الجزائر قالوا للقائد التركي خـــير الدين باشا وقد أراد الانتقال عن المغرب الأوسط : « يجب عليك المقام بهذه البلدة الإسلامية لحمايتها ، ولا رخصة لك في تركها نهبة للمفترس »(١) .

ومن طرابلس الغـرب سافر وفد إلى الآستانة ليطلبوا النجدة من العثمانيين (٢) .

وفي تونس كاتب أهل القيروان الأتراك المجاهدين بالجزائر وليبيا ، ليهبوا إلى تخليصهم من الاحتلال الاسباني (٣) .

وإلى جانب هذه الفورات الشعبية ، كان سلاطين شمـال أفريقيا وأمراؤهـــا ، عملوا — منذ بدء الحملات الاستعمارية — لتوحيد صفوفهم

---

(١) إتحاف أهل الزمان ، ج ٢ ص ١٠

(٢) « المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب » ، تأليف أحمد بك النائب الأنصاري الطرابلسي : مطبعة جمال الدين أفندي بالاستانة ، ص ١٨٧

(٣) اتحاف أهل الزمان ج ٢ ص ٢٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والتحالف فيما بينهم ، ثم كاتبوا قانصوه الغوري عاهل الكنانة ، وطلبوا منه الانضمام إلى هذا الحلف ، والقيام – من جهته – بطرد تجار الفرنج المقيمين بإيالته ، والعمل على غلق كنيسة القيامة في وجه حجّاجهم (١) .

وعلى مستوى التعاون المغربي الجزائري ، كان أبو العباس أحمد الوطاسي استعان به أبوزيان أحمد الثالث ، ضد أخيه محمد السابع الذي احتمى بالإسبان وهم يحتلون تلمسان ، وقد أمدّهُ العاهل المغربي بالرجال ، وبالأسلحة المنوعة : مدافع ودروع وقسي ومعدات أخرى ، وقال لأمير تلمسان : داري دارك ، وأنا لك بمنزلة الوالد ، وابني بمنزله أخيك (٢) .

---

(١) « المماليك والفرنج » تأليف الدكتور أحمد دراج : نشر دار الفكر العربي بالقاهرة ، ص ١٢٩

(٢) ارجوزة « عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الفضائل » لمحمد الكراسي المطبعة الملكية بالرباط ص ٣٨ – ٣٩

ومن ملحقات هذا الموضوع ماورد في كتاب : « دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر » ، تأليف الأستاذ عبد الحميد بن أبي زيان بن أشنهو ، مطبعة الجيش بالجزائر ، غير أن الأمر – هنا – يتعلق بأمير سابق لإبي العباس الوطاسي ، وهو والده محمد المعروف بالبرتقالي بن محمد الشيخ ، وقد جاء في هذا الصدد بالمصدر المشار له ص ٧٦ :

« . . . وبمجرد ماوصل عَرّوج إلى تلمسان ، وجّه إلى السلطان الوطاسي مولاي محمد ليتحالف معه ، كي يوجه إليه النجدة ، مقابل شد عضده في محاربة السعديين ، الذين أخذت شوكتهم تتقوى في بلاد سوس ومراكش ، وفعلاً وجه الوطاسي جنداً يقارب ٢٠٠٠٠ محارب على طريق مليلية ، وإذ كان عروج ينتظر وصولهم حاصره العدو وشدد عليه الخناق ، كما سنشرحه فيما بعد » =

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وبعد قيام السعديين تحقق تحالف مغربي تركي لتحرير مدينة وهران[1].

وقد اهدى عبـد الملك المعتصم للعثمانيين كمية من الذخيرة تتألف من عشرين مدفعاً ، يشتمل أولها على تسـع فوهات ، حسب مؤرخ سعدي يعقب ويقول عن النفض الكبير : « وهو — الآن — بباب الجزيرة

= ولما ذكر نفس المصدر رواية استشهاد القـائد العثماني عروج باشا في بني يزناسن ببلاد المغرب ، عقب عليها ص ٧٩ :

« إننا نؤكد هذه الرواية التي تثبتهـا محالفة عروج مع سلطان فاس محمد الوطاسي ، الذي لم يسعه الوقت لتوجيه النجدة ، فإن عروج فرنحو الغرب لعله يلاقي الحملة المغربية الآتية من مليلية ، وحين قربت من وجدة وصل خبر عروج أنه استشهد مع رفقائه ، فرجعت الحملة إلى فاس ، وأثبت الأمر ايبولار مترجم كتاب الحسن بن محمد الوزان عن وصف افريقيا .

وبعد هذا لم يبق مجال للتردد في أمر هذه النجدة ، بعدما أثبت واقعها الوزان الفاسي ، وقد تشكك فيها الأستاذ أحمد توفيق المدني ، في كتاب « حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا » ص ١٩٠ حسب الفقرة التالية :

« وقد قيل — وليس بأيدينا ما يؤكد هذا القول أو ينفيه — إن عروج كان ينتظر النجدة من قبل ملك فاس الوطاسي المريني تنفيذاً لاتفاق عقـد بينهما ، وأن الملك المريني قد أرسل — فعـلاً — بجيش لنصرة عروج ، وتمكينه من الدفاع عن تلمسان ضد الإسبان وأنصارهم ، لكن ذلك الجيش سار على طريق مليلية ، فطال به السير ولم يتمكن من الوصول إلى ميدان المعركة في الوقت اللازم ، فلما تم الأمر قفل راجعاً » .

(١) مجلة « تطوان » : العدد الخامس ص ١٣٣ ، مـع العدد السابع ص ١٠١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بالجزائر »[١] .

ونسق المجاهدون - من المغربين - العمليات البحرية فيما بينهم ، فصار المغاربة في واجهة المحيط ، بينما كان الجزائريون يعملون بالمتوسط[٢].

وكان هؤلاء يتزودون — عند الاقتضاء — من المغرب عند مرسى تطوان وغيرها[٣] ، ومن مستتبعات هذا التعاون حسن استقبال المغرب للمهاجرين الجزائريين ، ومنهم العلماء التلمسانيون الذين وفدوا عام ٩٦٨ هـ/٦١ - ١٥٦٢ م ، وكان فيهم محمد بن عبد الرحمن بن جلال المغراوي ، وأبو العباس أحمد بن سمية العبادي ، وقدم مع هذا الأخير محمد شقرون بن هبة الله الوجديجي وأبو العباس أحمد بن محمد بن قاسم العقباني[٤] .

قال في « دوحة الناشر »[٥] في ترجمة العبادي : « ولما قدم على فاس عام ثمانية وستين — يعني وتسعمائة — في جملة فقهاء تلمسان ، لما رحلهم السلطان الغالب من تلمسان ، حين وقعت الفتنة بينهم وبين الترك ، واستغاثوا فأمدهم بالأجناد ونقلهم إلى فاس ، ووصل كلًا منهم على قدر

---

(١) « تاريخ الدولة السعدية » المؤلف مجهول الاسم : المطبعة الجديدة بالرباط ، ص ٥٣

(٢) مجلة « تطوان » العدد الرابع والخامس « مزدوج » ، ص ٧٠

(٣) نفس المجلة : العدد التاسع ، ص ١٢٦ - ١٢٧

(٤) انظر تراجم الوافدين الأربعة في « دوحة الناشر » : ص ٨٦ — ٨٨ و ٩٠ — ٩١ ، وفي مخطوطة فهرس المنجور : « وسمعت - أيضاً - من جماعة ممن قدم على فاس من فقهاء تلمسان » .

(٥) ص ٨٧ ، مع تصحيح النص المطبوع عن نسخة مخطوطة

شبكة الألوكة www.alukah.net
www.alukah.net

حاله ، ووصله بألف مثقال ذهباً ، وأمر له بكساء وإقامة جليلة ، وقال : لا تسووه بأحد من الفقهاء وغيرهم ، فإن همته كبيرة » .

* * *

ومن الوافدين على المغرب من تونس في الفترة ذاتها نعرض ثلاثة :

أبو الطيب بن محمد الظريف التونسي ، وكان شيخاً مرشداً بجامع الزيتونة ، وبعد الحملة الإسبانية الأولى هاجر إلى المغرب واستوطن مدينة فاس ، وبها صارت له ألفة مع أحد علمائها المرموقين : أبي الحسن علي ابن هارون ، الذي خاطبه بقطعة شعرية يتفجّع فيهـــا على نكبة تونس ، ومطلعها :

جادك الغيث إذا الغيث انهمر حضرة الأنس البديع المونس[1]

وبعد الظريف التونسي كان محمد بن خروف الأنصاري ، قد أسره الإسبـــان في مدينة تونس بعد الحملة الأولى ، واستمر في الأسر — بإسبانية — ستة أعوام غير قليل ، إلى أن فداه الأمير أبو العباس الوطاسي عام ٩٤٧هـ/١٥٤٠م ، بإشارة من فقيه فاس محمد اليسيتني ، فانتقل العالم المفدّى إلى مدينة فاس واستوطنها ، حتى توفي بها عام ٩٦٦هـ/١٥٥٨م وهو يتحدث عن مأساته وفدائه ويقول :

« . . . وكانت مدة أسري ستة أعوام غير قليل ، محفوظاً فيها في ديني وبدني فضلاً من الله سبحانه له الشكر على ذلك ، إلى أن خلصني

---

(١) مخطوطة « فهرس المنجور » عند ترجمة أبي الحسن علي بن هارون ، مع « جذوة الاقتباس » لابن القاضي ، المطبعة الحجرية الفاسية ، ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الله تعالى خلاصاً جميلاً ، على يدي مولانا السلطان المؤيد ، أبي العباس أحمد الوطاسي ، أجمل الله تعالى خلاصه ، فبذل في فدائي مالاً كثيراً يقرب من ألف دينار وبعد محاولة عظيمة يطول ذكرها ، وعاملني - بعد الخروج - بما لا أحصي عده ، جعله الله تعالى له عدة .

وأول يوم قابلته به — وذلك في أول رجب الفرد ، عام سبعة وأربعين وتسعمائة ، وقد خلع عليَّ من أحاسين ملابسه - أنشدته من نظمي بحضرة خواص أصحابه وبعض التونسيين حاضر (١) .. » .

أما الوافد التونسي الثالث فكان من طبقة الأطباء . وانتظم للعمل في بلاط المنصور الذهبي . وذكرته رسالة سعدية مُشيرة إلى مهنته ووطنه دون التعريف باسمه (٢) .

---

(١) محمد المنوني : « مواقف المغرب ضد الحملات الصليبية » ، مجلة « دعوة الحق » : السنه ١٣ ، العدد ٣ ، ص ٥٦

(٢) الرسالة واردة عند الأفراني في « نزهة الحادي » : المطبعة الحجرية الفاسية ، حيث وردت بها الاشارة المعنية ، ص ١٦٦ ، وانظر « المنتقى المقصور » لابن القاضي : مخطوط المكتبة الملكية رقم ١١٥٣ أوائل الباب الثاني ، حيث يذكر اسم أبي العباس أحمد بن محمد بن الحكيم التونسي الوافد على المغرب الأقصى .

ونضيف إلى هذا التعليق وافدين تونسيين زيادة على الثلاثة السابقين :

محمد التونسي الحفصي ، جد محمد المأمون بن محمد شارح العقيدة السنوسية الصغرى ، قال الأفراني عند ترجمة هذا الحفيد : « وكان جد صاحب الترجمة ، قدم على السلطان أبي عبد الله المهدي السعدي ، حين أخرجهم الأتراك من تونس واستولوا على مملكتها ، ففرح به السلطان المذكور ، وظن أنه قصده بطلب =

شبكة الألوكة www.alukah.net
www.alukah.net

وإلى هنا تبينا ملامح ردّ الفعل المغربي رداً على الحملات الأجنبية، وقد عاد هذا الموقف بالنتائج المتوخاة. وحررت ـ تباعاً ـ غالبية الجهات المحتلة. وننتقل بعد هذا إلى عرض الأحداث الأخرى التي عرفها المغرب العربي في الفترة ذاتها.

* * *

وقد عاصر هذه الفترة تصاعد الهجرات الأندلسية إلى المغرب العربي في وفادات متعددة.

فكانت وفود الأندلسيين بناة مدينة تطوان عام ٨٨٩ هـ / ٨٤ — ١٤٨٥ م.

وبعد هذا وقع سقوط غرناطة عام ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م. وصار من استطاع من الأندلسيين الهجرة ينتقل إلى العدوة الأخرى: ومنهم الوافدون عام ٩٠٢ هـ / ٩٦ — ١٤٩٧م، حيث توزعوا بين تونس والجزائر وتطوان وفاس ومراكش وغيرها (١).

= المعونة منه على الأتراك، فاختار المسكنة، ولم يزل عنده في الحظوة إلى أن توفي » — « صفوة من انتشر » المطبعة الحجرية الفاسية ـ ص ١٠٩

الثاني: ذكره ـ عرضاً ـ أبو حامد محمد العربي الفاسي هكذا: « الفقيه، الكاتب، أبو عبد الله محمد الأندلسي، وكان كاتب السلطان حميدة، آخر ملوك بني حفص بإفريقية » — « مرآة المحاسن » ص ٢٣٠ — ٢٣١

(١) خاتمة « الأنوار السنية، في آباء خير البرية »، تأليف محمد بن عبد الرفيع الشريف الأندلسي: المخطوط الآتي الذكر أواخر هذه الدراسة.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وفي عام ٩٧٠ هـ / ٦٢ - ١٥٦٣ م وفد على المغرب الأقصى جالية كبرى سكن معظمهم بفاس وبمدينة مراكش (١) .

ثم كان الجلاء الأخير إلى مجموع الشمال الإفريقي عام ١٠١٨ هـ / (٢) ١٦٠٩ م .

ويقدر مؤلف عربي قريب من عصر الحادثة (٣) عدد الوافدين في هذه الهجرة بنيف وستمائة الف يضاف لهؤلاء المهاجرين المسلمين جاليـــة يهودية طردت من إسبانيا في تاريخ سابق : عام ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م ، فقصد المغرب الأقصى نحو مائة ألف نفس . وتوزع شطر هـذا العدد بين بقية المغرب العربي (٤) .

* * *

(١) « تاريخ الدولة السعدية » لمؤلف مجهول الاسم ، ص ٣٨ - ٣٩ ، مع بغية الناظر والسامع » لأبي القاسم الزياني ، مخطوطة المكتبة الملكية رقم ٦٧٨

(٢) جاء في « نهاية الأندلس » : « وقد صدر قرار النفي - كما قدمنا - في ٢٢ سبتمبر سنة ١٦٠٩ ، وهو يوافق جمادى الثانية سنة ١٠١٨ ، ولكن الرواية الاسلامية تضع تاريخ القرار في سنة ١٠١٦ هـ أو سنة ١٠١٧ هـ ، وهو تحريف واضح » : الطبعة الأولى ص ٢٩٨ ، ويؤخذ على المؤرخ عبد الله عنان أن تحريف الرواية الاسلامية لم يكن شمولياً ، حيث ان مصدراً مغربياً يوقت الحادث بعام ١٠١٨ هـ ، حسب « تاريخ الدولة السعدية » لمؤلف مجهول الاسم ص ٩٦

(٣) هو محمد بن عبد الرفيع الأندلسي عند خاتمة « الأنوار السنية » : المخطوط الآتي الذكر .

(٤) « تحفة الزائر ، في مآثر الأمير عبد القادر ، وأخبار الجزائر » تأليف ابنه محمد : المطبعة التجارية بالإسكندرية ، ج ١ ص ٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وساوق هذه الهجرة الأندلسية وفود جاليات شرقية على المغربين الأوسط والأدنى ، وكان هؤلاء هم الأتراك العثمانيين الذين ابتدأ حكمهم بالجزائر من عام ٩٢٤هـ/١٥١٨م ، وفي ليبيا عام ٩٢٦ هـ/١٥٢٠م . وبتونس عام ٩٨١ هـ/١٥٧٣م .

يضاف للجاليتين الأندلسية والعثمانية الأسرى من البرتغاليين والاسبان ومن أمم أوربية أخرى ، وكان عددهم كثيراً في مجموع الشمال الافريقي ، واعتنقوا الإسلام في نهاية الأمر ، حيث صار الواحد منهم يعرف باسم العلج ، ليؤدي مدلول مملوك أبيض البشرة (١) .

وأخيراً : ظهر بالمغرب الأقصى عنصر المماليك الذين استجلبهم المنصور السعدي من السودان (٢) .

وقد خلف هؤلاء الوافدون - أندلسيون وأتراك وسواهم - مجموعة من التأثيرات التي كانت - في غالبها - إيجابية ، وبرزت في الوضع السكني والاقتصاد ، والمعمار ، ونظم الحكم ، والثقافة ، وسوى ذلك ، وسيكون

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب : « ورقات عن الحضارة العربية ، بإفريقية التونسية » نشر مكتبة المنار بتونس ، القسم الثالث ص ٢٦٢ ، انظر مجلة « تطوان » العدد التاسع ص ٦٦

(٢) كان المنصور السعدي أضاف إلى الجيش المغربي فرقة سودانية ، وهو مايثبته مؤرخو العصر العلوي الأول ، انطلاقاً من أبي القاسم الزياني إلى الناصري في الاستقصا ج ٧ ص ٥٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

تحليل هذه التأثيرات هو موضوع الأبواب التالية ، بعد أن انتهي مدخل هذه الدراسة .

* * *

ونذكر - أولاً - أن هذه الوفادات المنوعة ، أحدثت تبدلاً واضحاً في الوضع السكني على امتداد المغرب الكبير ، حيث طرأت عليه عناصر بشرية لم تكن معروفة به من قبل ، وقد ضاعفت هذه المجموعات الوافدة عدد السكان السابقين ، وانبثق عنها طبقـــات جديدة تتميز بأنظمة حياتها وتقاليدها .

* * *

وبالنسبة إلى العنصر الأندلسي ، صار تأثيره واضحاً في المغارب الثلاثة ، وبالخصوص فى حقل الفلاحة والصناعة والعمار .

فالذين نزلوا منهم بأرياف تونس اغترسوا الكروم والزيتون وغرائب الفواكه والثمار ، كما حفروا القنوات ، وصنعوا العجلات ، ومهدوا بها الطرق للمسافرين ، وشيدوا الجسور .

وابتنوا - من جديد - أكثر من عشرين بلداً أكبرها مدينة تستور (١) التي شيدت منارتها على هندسة بديعة ، حتى إن الناظر إليها من أعلاها يشاهد

---

(١) « المؤنس » ص ١٨٣

« الحلل السندسية ، في الأخبار التونسية » للوزير السراج ، عند أوائل المجلد الثاني من مخطوطة الخزانة العامة بالرباط ، سنة ١٢٦٦ ، و « اتحاف أهل الزمان .. » ، ج ٢ ص ٣١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قعرها ، حيث وضعت على شكل أسطواني فارغ الوسط [١] ، وكانت مرصعة بساعة زادت في بهجتها [٢] .

وفي تونس العاصمة استوطنوا حومة الأندلس ، وزقاق الأندلس وغيرهما ، وأسسوا بحومة الأندلس جامعها ، وبنوا المدرسة الأندلسية [٣] .

---

(١) « تعاليق حاضر العالم الإسلامي » للأمير شكيب أرسلان : الطبعة الثالثة ج ٢ ص ٤٩

(٢) « تاريخ معالم التوحيد » لمحمد بن الخوجة : المطبعة التونسية ص ٨٣ وهناك دراسة عن مدينة تستور أنجزها المستشرق الفرنسي جورج مارسي باسم « تستور وجامعها الكبير » ، ونشرها « بالمجلة التونسية » بالعدد ٤٩ لسنة ١٩٤٢م ، ثم عربها ـ عن الفرنسية ـ الأستاذ التونسي مصطفى زبيس ، ونشرت الترجمة مجلة « الثريا » ، ابتداء من المجلد الأول عدد ١٢

(٣) « إتحاف أهل الزمان » ج ٢ ص ٣٠ ، ويقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في محاضرته : « مصير الأندلسيين » : « ... فأما تونس فنزلها منهم أهل الصنائع والفنون : فأهل الصنائع الدقيقة سكنوا المدينة ، وهم أهل الثروة منهم ، وبنوا لأنفسهم حومة تعرف بزقاق الأندلس قرب جامع القصر ، وأما أهل الصنائع الأخرى وبعض الفلاحين من أهل الحواضر فسكنوا ربض باب السويقة ، وهم أول من بنى هناك خارج السور ، فبنوا الحومة المعروفة بحومة الأندلس ، ولم يزل من بقاياهم هناك عائلات منهم عائلة الأندلوس .

ثم يقول بعد هذا : « أما بلد بنزرت فقد سكنها الأندلسيو ، وبنوا بها حومة تعرف ـ الآن ـ بحومة الأندلس ، وأسسوا قربها قرية منزل جميل ، ومنزل عبد الرحمن ، والعالية ، وغار الملح .... » .

وقد وردت مقتبسات من المحاضرة العاشورية في « تعاليق حاضر العالم الإسلامي » ، ج ٢ ص ٥٩ ـ ٦٣

هذيج مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وبالجزائر نزلوا بعدة جهات : منها تلمسان ووهران ودلس وغيرها ، وكان منهم من نزل سهل متيجة بنواحي البليدة ، وأحدثوا به غراسة النارنج والبرتقال (١) .

والذين سكنوا الجزائر العاصمة ، أسسوا - بجارتهم - معهداً كان يشتمل على مدرسة علمية ، وكتاب قرآني ، ومسجد للصلاة (٢) .

وقد أسس الأندلسيون بالمغرب الأقصى مدينة تطوان ، وجدّدوا مدينة الرباط ، وبمدينة مراكش اعتمروا جانبها الغربي الذي صار يعرف بروض الزيتون ، وبنوا بالمشيدات الثلاثة الدور والقصور والمرافق ، واغترسوا خلف أسوارها جنات معروشات وغير معروشات ، في مساحات شاسعة (٣) ، وتميزوا بطريقة خاصة في تشييد المباني السكنية في تصاميمها

---

(١) « تاريخ الجزائر العام » ج ٢ ص ٣٠٦ - ٣٠٧

(٢) صفحات في تاريخ مدينة الجزائر « لنور الدين عبد القادر ، مطبعة البعث بقسنطينة ، ص ١٦٥

(٣) ورد ذكر اعتمار الأندلسيين بمدينة مراكش عند القشتالي في « مناهل الصفا » ، مطبعة ومكتبة عصرية بالرباط ص ٤٢ ، مع « بغية الناظر والسامع » للزياني : المخطوط الوارد عند التعليق رقم ١ ص ٨٤٢

وقد تكرر ذكر الأندلسيين - سكان مراكش - بعد هذه الفترة التي نعرضها ، فأبو سالم العياشي يشير لأحدهم ، آخر رحلته المنشورة بالمطبعة الحجرية الفاسية : ج ٢ ص ٣٧٢

وقد عاد من رحلته بتاريخ ١٧ شوال عام ١٠٧٤ هـ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وزخرفتها وشكل بواباتها ، وهو النموذج الذي استمر مفضلاً في القصور القديمة بالرباط وسلا وتطوان . وفي فاس : كانت مباني السلطان أبي عبد الله ابن الأحمر الوافد على هذه المدينة بعد سقوط غرناطة ، ويقول عنـــه المقري (١) « وبنى بفـاس بعض قصور على طريق بنيان الأندلس ، رأيتها ودخلتها » .

كذلك امتاز الأندلسيون بصناعات وفدوا بهـا على المغرب الكبير ، أو أحيوا بها صناعات قديمة ، مثل المنسوجات الحريرية ، والصياغة ، وصناعة الجوارب ، وعمل الحصر ، ومن ذلك صنـاعة القلانس الحمر : الطربوش التونسي بتونس ، والشاشية في فاس (٢) .

وفي الرباط وتطوان : نشير إلى « صندوق العروس » ، وكان

= ثم ورد ذكرهم عند محمد المكي بن موسى الناصري بمناسبة وصفه لحفلة صلاة العيد التي ترأسها السلطان العلوي : المولى سليمان ، وهو يقول في هذا : « ثم جاء أهل الأندلس القاطنين (كذا) بالحمرا ، وبين أيديهم لواء أخضر ، وامتازوا به عن غيرهم وجعلوا يخرجون البارود ... » ، « الرياحين الوردية في الرحلة المراكشية » ، ضمن كناشة بالخزانة العامة بالرباط ، ج ٨٨

(١) « نفح الطيب » : المطبعة الأزهرية المصرية ، ج ٢ ص ٦١٧

(٢) « دائرة المعارف الإسلامية » : الترجمة العربية ، مج ٦ ص ٤١ - ٦٤

محمد السائح في مقدمة « سوق المهر ، إلى قافية ابن عمور » : المطبعة الاقتصادية بالرباط ، ص كح .

« ورقات عن الحضارة العربية » القسم الثالث ، ص ٢٦٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يصنع من عود العرعر الصلب في هيكل غاية في الكبر ، لتجمع به العروس لباسها ورياشها (١) .

هذا إلى تجديدات أندلسية طورت تصنيع عدد من المعدات الدفاعية .

ويقول ابن الخوجة (٢) عن التأثير الأندلسي في تونس بالخصوص : « وكان امتزاج الأندلسيين بأهل تونس كلقاح خصيب للأمة التونسية ، لأن أسلافنا أخذوا عنهم أحوالاً كثيرة في باب الصنائع اليدوية ، ومنها تجليد الكتب وزخرفتها بأبدع أسلوب ، وتعلموا عنهم - أيضاً - كيفية عرض البضائع للبيع بالحوانيت : من جمعها وضمّ المتشابه منها بعضه لبعض .

وكان لنسوة الأندلس فضل على بنات تونس ، لأنهنّ علّمن ابنة البلاد تدبير المنزل من تأثيث وطبخ وحلاويات ، وكانوا - في تونس - لا يحسنون قبل ذلك من أصناف الحلويات غير الفالوذج ... » .

وهكذا نتبين نماذج من التأثيرات التي وفد بها الأندلسيون على تونس وسائر المغرب الكبير ، فاستفاد منهم المغاربة أساليب جديدة في تطوير الفلاحة والصناعة والمعمار ، وقد ذكر ابن القاضي (٣) عن المنصور الذهبي أنه ظهر في عصره حرف مهمة لم تكن معروفة بالمغرب ، ومن المتبادر أن تكون الحرف الأندلسية الوافدة مما يندرج في فقرة المؤرخ السعدي .

* * *

(١) مقدمة « سوق المهر » ، ص كح .

(٢) « تاريخ معالم التوحيد » ، ص ٨٣

(٣) مخطوط المنتقى المقصور : عند المقدمة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد برز التأثير العثماني على مستوى نظم الحكم ، وهو ما اتسمت به أنظمة المغربين الأدنى والأوسط في الإدارة والدفاع ومشتقاتها ، ولحسن الحظ فإن هذه التجديدات التركية بالجهات المشار إليها ، قد فصلت إجراءاتها المصادر المعنية بالأمر (١) .

بينما كانت مثيلات هذه الترتيبات بالمغرب الأقصى لا تزال بحاجة إلى توضيح فلهذا سنتوسع - قليلاً - في عرضها .

ونشير إلى أن المغرب اقتبس - قليلاً - من الأنظمة التركية الإدارية .

وكان أولها ظهوراً إحداث رتبة المفتي ، مجاراةً لتقليد تركي قديم من عهد محمد الفاتح ، ويبتدىء ذكر هذه الخطة بالمغرب من أيام محمد الشيخ السعدي ، حيث قلد منصب الفتوى بفاس لمحمد بن عبد الرحمن بن جلال ، المغراوي التلمساني نزيل فاس (٢) .

---

(١) من نماذج هذه المصادر عن تونس : « إتحاف أهل الزمان » ج ٢ ص ٢٦ — ٢٧

« خلاصة تاريخ تونس » تأليف حسن حسني عبد الوهاب ، الدار التونسية للنشر ، ص ١٦٠

وعن الجزائر : « تاريخ الجزائر العام » ، ج ٢ ص ٢٧٧ - ٢٨٨

« صفحات في تاريخ مدينة الجزائر » ص ٧٢ - ٩٣ . ومن مستتبعات هذه الظاهرة انبعاث المذهب الحنفي بالمغربين : الأدنى والأوسط ، وهناك معلومات عن هذه الظاهرة بالنسبة لتونس ، في تاريخ معالم التوحيد ص ٣٩ — ٤٠ مع ص ٩٠ — ٩١

(٢) « دوحة الناشر » ، ص ٩٠ — ٩١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وفي عصر عبد الله الغالب ـ خلف محمد الشيخ ـ أسند نفس الحطة بمدينة مراكش إلى محمد شقرون بن هبة الله الوجديجي التلمساني نزيل المغرب (١) وقد سلف ذكره مع سابقه .

ومن الأنظمة الإدارية التي لم تكن معروفة بالمغرب من قبل ، وضع العلامة أو الطابع بأعلى المراسيم ، وهي عادة قديمة في الدولة السعدية ، وعن عصر المنصور يفرق القشتالي (٢) بين موضوعات الكتب ذات العلامة ، والأخرى ذات الطابع ، وهو يقول في هذا عن مخدومه :

« . . . فتارة بيده الكريمة إن كانت الكتب أجوبة أو ظهائر ، وتارة بالطابع إن كانت مظالم أو براوات الأشغال والعطاء » .

ثم كان من التجديدات الإدارية التي عرفها المغرب أيام المنصور السعدي ، إحداث مؤسسة استشارية باسم « الديوان » ، وهذا ـ بدوره ـ تنظيم تركي ، عرفه المغربان في مجمع يضم ـ أصالة ـ شخصيات عسكرية ينضاف لها مستشارون مدنيون (٣) ويقول الإفراني (٤) عن الديوان المغربي :

---

(١) « المصدر » ، ص ٨٦

(٢) « مناهل الصفا » ص ٢٠٦

(٣) يقول ابن أبي دينار عن ترتيبات العثمانيين بتونس : « وجعلوا قوانين يتميزون بها ، وحذوا في أول أمرهم ـ في الأحكام ـ حذو ديوان الجزائر » ، « المؤنس » ، ص ١٧٩ . وجاء عند ابن أبي الضياف عن القائد التركي : سنان باشا : « ورتب أعياناً من أهل البلاد يحضرون في ديوان العسكر تألفاً لقلوبهم » اتحاف أهل الزمان ج ٢ ص ٢٧

(٤) « نزهة الحادي » ، ص ١٤٢

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

« كان المنصور .. مشاوراً في قوام الأمور ، وقد اتخذ يوم الأربعاء[١] للمشاورة وسماه يوم الديوان ، يجتمع فيه وجوه الدولة وأعيانها ، ويتطارحون فيه وجوه الرأي فيما ينوب من جلائل الأمور ، وعظائم النوازل » .

وقد استمرت هذه المؤسسة إلى ما بعد أيام المنصور ، حيث جاء عن إجراءات بيعة محمد الشيخ الدلائي بفاس ، أنها حضرها الجم الغفير من أهل الديوان[٢] ، وكان محمد بن الأشهب من أعضائه في هذا الوقت بالذات[٣].

* * *

وبعد هذه الاقتباسات التركية في حقل الإدارة ، تأتي تجديدات الدفاع المغربي ، ومن الجدير بالملاحظة أن المغرب سار في هذا الصدد على الاستفادة من خبرات المهاجرين الأندلسيين ، ومعرفة الأسرى الأعلاج ، واقتباس كثيراً من الأنظمة العسكرية العثمانية ، كما حافظ على المفيد من أساليب الدفاع الوطني القديم .

* * *

(١) جاء عند كل من ابن القاضي والقشتالي : أن الديوان المنصوري كان ينعقد أيام السبت والاثنين ، والأربعاء :

« مخطوطة المنتقى المقصور » أوائل الباب السابع . « مناهل الصفا » ، ص ٢٠٥

(٢) مخطوطة « البدور الضاوية » لأبي الربيع سليمان الحوات ، عند الفصل الأول من الباب السادس .

(٣) المصدر نفسه ، عند الفصل الخامس من الباب السابع .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد كانت المفاجأة التي تفوّق بها البرتغاليون هي الأسلحة النارية الحديثة ، ولذلك صار لها الأسبقية في استعدادات المغاربة لمعارك التحرير .

ويرتقي أقدم نصّ معروف في هذا الاتجاه إلى أواخر أيام الوطاسيين : على عهد أبي العباس أحمد الوطاسي ، المتوفى عام ٩٦١ هـ / ١٥٥٣ م .

وقد أنشأ معملاً لصنع الأسلحة النارية بساحة القصر الملكي من فاس الجديد ، وصار يستخدم لإنتاج المدافع والبندقيات والبارود (١) .

وبعد هذا — أوائل أيام السعديين — كان في جيش عبد الله الغالب فرقة مدفعية قوامها جيوش جرارة من الأندلسيين المهاجرين قبل الجلاء الأخير (٢) .

ثم تكاثر هذا السلاح من بعد ، حتى إن حملة عسكرية صارت مجهزة بمائة وخمسين من الأنفاض (٣) عام ٩٨٣ هـ / ١٥٧٦ م ، وقد لا تكون هذه المدافع كلها من صنع محلي ، وإنما فيها مستوردات من الخارج .

واستكثر عبد الملك المعتصم من إنتاج هذه المدافع ، وكان عارفاً بصنعها ، وأشرف — بنفسه — على إعداد نحو ثمانية منها (٤) .

وبنى المنصور الذهبي معملاً جديداً لإنتاج الأسلحة النارية باسم « دار

---

(١) أرجوزة « عروسة المسائل » ص ٣٦ - ٣٧

(٢) « مناهل الصفا » ، ص ٤٢

(٣) « تاريخ الدولة السعدية » لمؤلف مجهول الاسم ، ص ٥١

(٤) محمد المنوني : « صناعة الأسلحة النارية بالمغرب » ، مجلة دعوة الحق السنة ١٣ ، العدد ٨ ، ص ٤٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

العدة » ، وكان مركزه بعقوبة من القصبة الملكية بمدينة مراكش ، ويقول القشتالي (١) عن وفرة منتجات هذا المعمل ومستورداته :

« وأما ما يفرغ - مع الأيام - من مدافع النار ومكاحلها بدار العدة المائلة قرب أبوابهم . . . إلى ما يجلب - مع الأحيان — على يد المعاهدين من تجار الحربيين : من السيوف الهندية ، والقسي الرومية ، والمكاحل النارية ، فشيء غصّت به الخزائن السلاحية ، والديار العادية » .

* * *

وإلى جانب هذا المعمل الجديد ، اهتم المنصور - مرة أخرى - بابتناء الأبراج لاستخدام المدافع ، وشيدت على وضع بدا فيه — واضحاً — تأثير الجاليات الوافدة من الأندلسيين والأعلاج ، وقد صارت هذه المشيدات يحمل الواحد منها اسم « بستيون » ، وهو تعبير إسباني عن الحصن .

وقد عرف المغرب من هذه الأبراج أربعة عشر موزعة بين أربع مدائن اثنان منها بمدينة العرائش ، وواحد بتازا ، واثنان خارج فاس العتيق على مقربة من بابي الفتوح والشريعة ، وقد كان هذا الأخير يعرف ببرج النار ، تدليلاً على مهمته المدفعية ، أما باقي الأبراج - وعددها تسعة - فقد أحاطت بأسوار فاس الجديد (٢) .

* * *

(١) « مناهل الصفا » ، ص ٢١٠

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٦٣ - ٢٦٥ ، مع المنتقى المنصور عنـــد الباب العشرين ، وهو الذي يحدد أبراج فاس الجديد بتسعة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وفي حقل تنظيم الجيش على طراز جديد ، نشير إلى أن عبد الملك المعتصم هو الذي تبنى هذه المبادرة ، وكان - قبل ولايته - زار الجزائر وتونس والاستانة ، وأعجب بترتيبات العثمانيين ، ولهذا عمد ، لما صارت الدولة له ، إلى تنظيم الجيش المغربي على الطراز العثماني ، وأسرف في هذا التقليد ، وحمل الناس عليه حملاً عنيفاً أثار معارضة شديدة .

غير أن أخاه أبا العباس المنصور ، استطاع التوفيق بين التقليد العثماني والحفاظ على المشاعر الوطنية ، فاختص الرؤساء العرب بالمشورة وقيادة فرق الفرسان ، وأسند إلى الأعلاج قيادة الفرق الأخرى للجيش البري (١) ، بينما جعل قيادة الأسطول إلى أميرال مغربي (٢) .

وباستثناء الأسطول فإن سائر أنظمة الجيش المنصوري صارت مقتبسة من العثمانيين : في ترتيب الجيش ، وألقاب الرتب ، وشكل اللباس ، وتنظيم المواكب .

كما أن لباس الملوك السعديين صار على الطراز العثماني ، ابتداء من عبد الملك المعتصم الذي جاء في ترجمته (٣) أنه كان يتزيّا بزي الأتراك .

ومن التقاليد العسكرية التي عرفها المغرب في عهد المنصور ، إطلاق

---

(١) « مناهل الصفا » ص ٢٠٠ - ٢٠١

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٤

(٣) « نزهة الحادي » ص ٧٠ ، وتلقيت - قديماً - من مؤرخ مغربي كبير أن الزي التركي استمر لباس سلاطين المغرب ، ولم يتغير إلى اللباس المغربي إلا من عهد السلطان العلوي أبي الربيع .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المدافع عند المناسبات ، وفي هذا يقول القشتالي (١) عن وقع هذه المدافع في مدينتي فاس :

« وإذا استهلت رعودها في العيدين عند العود من المصلى ، ولورودِ بشارة عظمى ، فلا تسأل عن تزلزل الأرض ورجفانها ، ويمتد على البلدين ركام البارود كأنما هو ليل مطبق .. » .

* * *

وقد أحيا المغرب السعدي حركة الجهاد في البحر ابتداء من أيام المعتصم الذي يقول عنه مؤرخ مغربي (٢) : « وأمر بإنشاء الســـفن في العرائش وسلا ، وصار أهل الأندلس يسافرون في البحر مع أهل المغرب ، وضيقوا بالنصارى أشد تضييق . وكثرت الغنائم » .

وبعد هذا تدخل المنصور الذهبي وأعد الأسطول بمرسى رباط الفتح . ونوه بخطة أميرال البحر ، فأسندها لمغربي . أدال منه فيما بعد بقائد تركي يقول عنه القشـتالي (٣) : « ... فهو اليوم — قبطان الأسطول الإمامي الجهادي . ورئيس الجماعة من رؤساء المراكب الجهادية ، والقطائع البحرية » .

* * *

وننتقل — الآن — إلى الجو الثقافي لنحاول الكشف عن آفاق التجديد التي عرفها هذا القطاع على امتداد المغرب الكبير .

---

(١) « مناهل الصفا » ، ص ٢٦٤

(٢) « تاريخ الدولة السعدية » لمؤلف مجهول الاسم ، ص ٥٣

(٣) « مناهل الصفا » ص ٢٠٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ويلاحظ – في البداية – أن كلاً من الحكام العثمانيين والسعديين لم يبذلوا محاولات لتطوير التعليم .

وساوق هذه الظاهرة تبدل تلقائي في عدد من الكتب الدراسية ، لتحل محلها موضوعات حديثة التأليف طغى عليها أسلوب الاختصار طغيانه على عدد من المؤلفات الدراسية الأخرى .

ومن جهة أخرى فإن الحركة العلمية خمدت في تونس من بداية التدخل الإسباني إلى أوائل المائة الهجرية الحادية عشرة[1] ، بينما نزح عنها بعض الأعلام مضافاً لهم عدد وافر من أعلام الجزائر نزحوا عن المغرب الأوسط في مناسبات مختلفة ، وقصدت غالبية هؤلاء وأولئك مدينة فاس ، كما أن علماء السواحل المغربية المحتلة لجؤوا بدورهم إلى نفس المدينة .

وبهذه الهجرات – من هنا وهناك – انبثق نوع جديد من التلاقح الفكري على مستوى المغرب العربي ، وصارت مدينة فاس ملتقى لهذا التلاقح ، بينما استمرت عناصر علمية أصيلة تزدان بها مدن من الجزائر .

وفي إطار هذا كله عرف المغربان – في ميدان التعليم والتأليف – بارقة تجديد تلقائي ، ولو أنه محدود ، وخاضع لأسلوب الاختصار الذي صار طابع الثقافة الإسلامية في هذا العصر .

* * *

(١) جاء في التاريخ الباشي عن الحاضرة التونسية في هذه الفترة : « وقد كان العلم – لأول دولة الترك – قد ارتفع منها بالمرة » ، نقله – باختصار – في اتحاف أهل الزمان ج ٢ ص ١١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وهكذا استجد بالمغرب الأقصى دراسة بعض العلوم العقلية ، بعدما وفد إلى فاس محمد بن خروف الأنصاري التونسي ، وكان بارعاً في المنطق والكلام وأصول الفقه والمعاني والبيـــان[١] ، والغالب أن الذي تجدد بالمغرب هو دراسة هذه المواد على طريقة المتأخرين .

كذلك انبعث في نفس الجهة دراسة الهندسة بفاس ومراكش ، وهنا نحيل إلى بحث منشور في هذا الصدد[٢] ، وإنما نشير إلى انبعاث تعليم الطب بالمغربين - معاً اعتماداً على ألفية ابن سينا ، وقد علق عليها - بتلمسان - محمد بن يوسف السنوسي شرحاً مات دون إكماله[٣] ، وأقرأها بفاس كل من عبد الرحمان سفين العاصمي[٤] ، وعبد الوهاب

(١) يقول عنه أبو حامد محمد العربي الفاسي : « الشيخ الإمام ، وحيد عصره بالمغرب في الأصلين ، والبيان ، والمنطق ، أبو عبـــد الله محمد بن أبي الفضل خروف التونسي ، وكان قد قرأ في تونس ومصر وغيرهما ... وأقام بفاس تقرأ عليه تلك العلوم ، فهو مجدد سند تعليمها بالمغرب ، وعنه أخذت على الحقيقة » « مرآة المحاسن » ص ٩

(٢) انظر : محمد المنوني : أساتذة الهندسة ومؤلفوها في المغرب السعدي » مجلة « دعوة الحق » : السنة التاسعة ، العدد الثاني ، ص ١٠١ - ١٠٤

(٣) أحمد بابا التنبكتي عند ترجمة السنوسي من « نيل الابتهاج » ، المنشور بهامش الديباج المذهب لابن فرحـون ، مطبعة المعاهد بالقاهرة عام ١٣٥١ هـ ص ٣٢٥ - ٣٢٩

(٤) جاء عنه أنه كان يشارك في الطب ويحسن ألفية ابن سينا ، حسب =

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الزقاق [١] ، وعبد الواحد بن عاشر [٢] ، وبفـــارة : عبد الوارث بن عبد الله اليلصوتي [٣] .

= مخطوطتي : فهرسي المنجور : الكبرى والصغرى ، ونقل أحمد بابا التنبكتي عن نسخة ثالثة من فهرس المنجور : « يقرىء ألفية ابن سينا » « نيل الابتهاج » ص١٧٧

(١) شرح أرجوزة طبية لناظمها القائد عبد الكريم بن مؤمن بن يحيى العلج ، خ ، ع ، ج ١٦٢ ، وهو يذكر في مدخلها أنه قرأ جل أرجوزة ابن سينا على أستاذه عبد الوهاب الزقاق .

ومن الجدير بالإشارة أن المؤلف يذكر اختصاصه بالسلطان السعدي عبد الله الغالب ، وقد ورد ذكره ـ عرضاً ـ في « مناهل الصفا » بوصف حاجب نفس السلطان ، ص ٢١٢ ، وعده في نزهة الحادي ص ٥١ من وزرائه مع وسمه بالجنوي ومثله في « الاستقصا » ج ٥ ص ٥٧

(٢) محمد ميارة : في ترجمة أستاذه ابن عاشر ، من مخطوط « نظم اللآلي والدرر ، في اختصار مقدمة ابن حجر » ، خ . ع ك ٩٣١ : عند الفصل الأول .

(٣) « دوحة الناشر » ص ٦ ، ووقع في نسبه من « الدوحة » المطبوعة : اليصلوتي بتقديم الصاد على اللام ، وهو تحريف عن اليالصوتي بتقديم اللام ، نسبة إلى يلصو بفتح أوله وسكون ثانية وضم الصاد ، ويقال إنه ابن محمد بن أبان ابن الخليفة عثمان بن عفان (رض) ، كما يذكر أنه دخل المغرب عام ٩٠ هـ حيث نزل بقبيلة بني زروال من قبيل الأخماس ، قال أبو الربيع سليمان الحوات : واتخذها داره حتى لقي الله ، وبقي بها أعقابه ، وهم ـ إلى اليوم ـ منتشرون ، وقبره فيها مزارة كبرى على مرحلتين من شفشاون ... وعوام تلك الناحية يقولون له يارزو » .

قال في « دوحة الناشر » عن نسب الشيخ عبد الوارث الذي نعلق عليه : =

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومن أواخر هذه الفترة بدأت مدارس الزوايا الصوفية في الظهور ، في مناهج تعتمد المواد الدينية والعربية ، مع تكوين أخلاقي رفيع ، وكان أول ما عرف منها بالمغرب الأقصى مدرسة تستاوت الملحقة بزاوية الشيخ محمد بن مبارك الزعري[1] عند عمالة خنيفرة ، ثم تتابع ظهور هذه المدارس بالأطلس المغربي على امتداد أقسامه ، وفي الصحراء وفاس .

* * *

وقد بدأت حركة التأليف تنتظم - أكثر - بالمغرب ، وفي الميدان الفقهي عرفت مدينة فاس نهضة جديدة تهدف إلى لون من فلسفة الفقه المالكي : باستنباط أصول مسائل الخلاف ، واستنتاج قواعد المذهب ، ومقارنة مسائله ، مع مراعاة تطورات المجتمع المغربي انطلاقاً من المـــائة الهجرية التاسعة .

= « ويقال إن يالصو هذا جده هو يلصو بن عبد الله بن أبان بن عثمان بن عفان رضي الله عنه » ، وقد عقب أبو الربيع الحوات على هذه الفقرة وقال : « وهو خطأ صراح » ، إذ ليس في بني أبان بن عثمان من اسمه عبد الله .

انظر عن يالصو هذا مخطوطتي :

« سنا المهتدي » لعلي مصباح الزرويلي : عند خاتمة الكتاب .

مع « الروضة المقصودة » لأبي الربيع سليمان الحوات : عند الباب السابع ، لدى ترجمة محمد بن سعادة الخمسي .

(١) هناك إشارة لهذه المدرسة وتسمية زمرة من طلابها الذين بلغ عددهم ألف طالب ، حيث ورد ذلك بتقييد لمؤلف مجهول الاسم في الترجمة المباركية ، حسب نسخة مخطوطة منه في المكتبة الملكية برقم ٧٢٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد ساهم في خدمة هذا الاتجاه مجموعة من أكابر الفقهاء المشترعين : أبو الحسن الزقاق ناظم أرجوزة « المنهج المنتخب إلى قواعد المذهب »(١) .

ثم أبو العباس أحمد الونشريسي التلمساني نزيل فاس ، مؤلف كتب « المعيار » و « إيضاح المسالك إلى قواعد الامام مالك » ، مع « عـــدة الفروق » في تلخيص مافي المذهب من الجموع والفروق(٢) .

وألف محمد بن أحمد بن غازي « كليات المسائل الجـــارية عليها الأحكام »(٣) .

وعمد عبد الواحد الونشريسي إلى « نظم كتاب إيضاح المسالك » لوالده نظماً مستوعباً مع إضافة زيادات موضوعية ، وله — سوى هذا — نظم كثير من نظائر المذهب وكثير من مسائله(٤) .

---

(١) نشر بالمطبعة الحجرية الفاسية ضمن شرحه للمنجور .

(٢) أول هذه المؤلفات وثالثها منشوران بالمطبعة الحجرية الفاسية ، والثاني مخطوط في نسخ متعددة ، منها واحدة عتيقة متلاشية ، غير أنها مذيلة بثلاثة تقاريظ ، آخرها لمحمد بن عبد الرحيم بن يحْبَش التازي ، وهي بالمكتبة الملكية رقم ٨٥٢٢ ، وهناك نسخة بخزانة وزان رابعة ، مجموع رقم ٦٨٠ ، ومن المقرظين عليها : عبد الرحمن ابن محمد الجذامي الشهير بالبردعي ، وأحمد الغرناطي الشهير بالأندلسي ، وابن يحبيش آنف الذكر ، وأحمد بن محمد الحباك ، وعبد الواحد الونشريسي ابن المؤلف ، وأخيراً أحمد العبسي .

(٣) نشر الموجود منها بالمطبعة الحجرية الفاسية .

(٤) « فهرس المنجور » عند ترجمة أستاذه الونشريسي ، ونظمه المشار له =

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ووضع أبو العباس المنجور « شرحاً على أرجوزة المنهـج المنتخب » المزقاق ، كما « شرح نظم أستاذه عبد الواحد الونشريسي لكتاب « إيضاح المسالك[1] » .

وأخيراً : أبو الحسن علي بن عبد الواحد الأنصاري السجلماسي نزيل الجزائر ، وهو ناظم « أرجوزة اليواقيت الثمينة ، في العقائد والأشباه والنظائر في فقه عالم المدينة[2] » .

وقد انبثق عن هذا المجهود الفكري ظهور تشريعات فقهية تسـاير

= لايزال مخطوطاً ، ومنه نسخة بالمكتبة الملكية رقم ٦١٥٥ ، وهي مذيلة بتقريظ عليها ، نظمه - في بحر الرجز - تلميذ المؤلف ومعلم أولاده : عبد الرحمن الكولالي والد أبي سالم إبراهيم الكولالي الفقيه النوازلي المعروف .

(١) علم من التعليق رقم ٣ في الصفحة السابقة : أن شرح المنجور للمنهج المنتخب منشور ، أما المؤلف الثاني فلا يعرف عنه سوى ذكره عند ترجمة الونشريسي من فهرس الشارح حيث يذكر أن الشرح لايزال لم يخرج من مبيضته .

(٢) هكذا ورد اسم المنظومة في ترجمة موجزها عند المحبي في « خلاصة الأثر » : المطبعة الوهبية بالقاهرة ، ج ٣ ص ١٧٣ - ١٧٤ ، غير أن الأرجوزة حددت عنوانها ، في الأبيات الختامية : « باليواقيت الثمينة ، فيما انتمى لعالم المدينة » ، وقد فرغ من نظمها بمدينة الرباط ، بتاريخ الجمعة من صفر عام ١٠٣٩ هـ .

لاتزال هذه المنظومة مخطوطة في نسخ قليلة خاصة أو عامة ، ومنها واحدة بخط جزائري - أول مجموع ، خ ، ع ، ك ١١٦٧ ، ويوجد شرحها بالخزانة نفسها لمحمد بن أبي القاسم السجلماسي - بخط مغربي - ، آخر مجمـوع يحمل رقم ك ١١٨٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

التطور المغربي في ميادين الأحوال الشخصية والمعاملات ، وهي المسائل التي صارت تعرف بالعمل الفاسي ، حيث ألم بنبذة منها أبو الحسن الزقاق أواخر منظومته « الزقاقية » في المسطرة القضائية ، ثم توسعت مسائل هذه العمليات ، لتظهر مجموعتها في فترة لاحقة ، منظومة في أرجوزة العمل الفاسي ، لأبي زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي [١] .

وقد ازدهرت في الحقبة التي نعرضها كتابة التراجم انطلاقاً من :

« النجم الثاقب فيما للأولياء من المناقب » لمحمد بن صعد التلمساني [٢] .

و « دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر » لمحمد بن عسكر الشفشاوني [٣] .

و « البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان » ، لمحمد بن مريم التلمساني [٤] .

و « جذوة الاقتباس ، فيمن حل من الأعلام مدينة فاس » ، مع

---

(١) تكرر نشرها هي واللامية الزقاقية بالمطبعة الحجرية والسلكية : منفردتين ومشروحتين .

ونستدرك هنا فنشير إلى أن ظاهرة جمع القواعد في هذه الفترة ، استخدمها أبو العباس أحمد زروق في تأليف رسالته التي تحمل اسم « القواعد » ، غير أن هذه تناولت التصوف وأصوله ، في ٢١٧ قاعدة منشورة بالمطبعة العلمية بمصر عام ١٣١٨هـ

(٢) لايزال مخطوطاً في نسخ قليلة ، منها واحدة في مجلد بالمكتبة الملكية رقم ٢٤٩١

(٣) نشرت - مرتين - بالمطبعة الحجرية الفاسية .

(٤) منشور في المطبعة الثعالبية بالجزائر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

« درة الحجال في أسماء الرجال » : الاثنتان لأبي العباس ابن القاضي الفاسي .

و « أزهار الرياض » و « نفح الطيب » مع « روضة الأزهار العاطرة الأنفاس ، في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين : مراكش وفاس » : الثلاثة لأبي العباس المقري التلمساني نزيل فاس (١) .

هذا فضلاً عن فهارس الأشياخ والتراجم الشخصية .

وقد كان أشهر طبيب مؤلف في هذه الفترة هو أبو القاسم الوزير الغساني الفاسي ، ويقول عنه الدكتور الفرنسي رينو : « إنه عقلية مستثناة بالنسبة إلى عصره والجو الذي عاش فيه ، وينبغي الحكم على عمله بموازنته مع الكتب العديدة في مادة الطب لمؤلفين آخرين من العرب » (٢) .

وقد كان من مظاهر النشاط الثقافي في الحقبة ذاتها ، بعث حركة التعريب بكل من المغرب وتونس ، محاولة للاستفادة من معطيات الانبعاث بأوروبا ، وإسهاماً في بوادر النهضة الحديثة ، وصارت هذه الظاهرة — بالمغرب الأقصى — من اهتمامات كل من المنصور السعدي وابنه زيدان .

ففي أيام المنصور قام أبو القاسم الوزير الغساني الفاسي بترجمة مؤلف إلى العربية ، وأعطى الترجمة اسم « مغني اللبيب عن كتب أعداء

---

(١) هذه المؤلفات الخمسة كلها منشورة ، وأكثرها تكرر طبعه .

(٢) كتاب (العلم عند العرب) تأليف المستشرق الايطالي الدوميلي : الترجمة العربية المنشورة في مطابع دار القلم بالقاهرة ، ص ٤١٨

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الحبيب » ، ولم يوضح المصدر المعني بالأمر موضوع الكتاب المعرب ، ولا يبعد أن يكون في الطب أو الصيدلة .

وقد أنجزت — في نفس العصر — ترجمة أخرى تناولت مؤلفاً طبياً بمباشرة أبي العباس أحمد بن أحمد بن الحسن المسفيوي المراكشي [١] .

وجاء عن زيدان : أن أسيراً إيرلاندياً يحمل اسم أنطوان ، كان يترجم — برسمه — الكتب اللاتينية إلى القشتالية ، وعن هذه اللغة ينقلها بعض الأعلاج إلى العربية [٢] .

ولا يبعد أن تكون هذه نفس الطريقة التي تمت — بواسطتها — الترجمتان الواقعتان على عهد المنصور ، حيث أشير لهما وشيكاً .

وقد كان في بلاط زيدان مترجم من مهاجري الأندلس : شهاب الدين أحمد بن قاسم بن أحمد الحجري الملقب بأفوفاي ، وبعد وفاة مخدومه قام بالمهمة نفسها لدى ولديه : (عبد الملك الثاني ثم الوليد) .

---

(١) انظر محمد المنوني : « ظاهرة تعريبية في المغرب السعدي » مجلة « اللسان العربي » : العدد الأول ، ص ٥٣ - ٥٥

وهناك نشرة ثانية مزيدة للدراسة نفسها : في صحيفة « معهد الدراسات الإسلامية في مدريد » : المجلدان ١١ ، ١٢ سنة ١٩٦٣ - ١٩٦٤م ، ص ٣٢٩ - ٣٥٨

ونشرة ثالثة مزيدة أكثر في مجلة « دعوة الحق » : السنة العاشرة ، العدد الثالث ، ٧٤ — ٩١

(٢) Gaston Deverdun (Marrakech des origines à 1912) Editions techniques Nord — Africaines — 1959 — I Texte — Page 434 .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والظاهر أن من مترجمات الشهاب الحجري بالمغرب ، تعريب رسالة الزيج الذي وضعه — في تعديل الكواكب — إبراهيم زاكوط اليهودي الأندلسي السلمنكي ، وكان هذا كتب رسالته بالعبرانية ، ثم نقلها — بمدينة مراكش — إلى القشتالية تلميذ المؤلف : المعلم يوسف الأندلسي ، وعن هذه اللغة ترجمها الحجري إلى العربية .

وبعدما أقام هذا الأخير بالمغرب أكثر من ٣٨ عاماً انتقل إلى حاضرة تونس ، حيث أنجز — بها — ترجمة أخرى بعنوان : « كتاب العز والمنافع للمجاهدين بالمدافع » ، وكان الأصل المعرب — عن القشتالية — ألفه — في فن المدفعية الحديثة — مهاجر أندلسي إلى تونس : إبراهيم غانم بن أحمد غانم الأندلسي ، المعروف — بالإسبانية — بلقب الرباش [1] .

وهكذا : سيكون « كتاب العز والمنافع » رابع المعربات في

---

(١) انظر محمد المنوني : « ظاهرة تعريبية في المغرب السعدي » ، ص ٥٥ - ٦٣ من نشرة مجلة « اللسان العربي » المشار لها وشيكاً ، وقد ورد بهذا المصدر الاشارة إلى النسخة الوحيدة التي كانت معروفة من الزيج الزاكوطي ، وهي بالمكتبة الملكية رقم ١٤٣٣ ، ثم ظهر بالمكتبة نفسها نسخة ثانية من هذا الزيج برسالته وجداوله ، في سفر مستقل صار يحمل رقم ٨١٨٤ ، وجاء في آخر الرسالة في تعابير ضعيفة هكذا:

« تمت الرسالة للجداول ، ترجمة من عبراني إلى لغة اللتين في لسان رمنص ، وهي اللغة العجمية المتصرفة في بلاد اسبانية ، وهي بلاد الأندلس . على يد المعلم يوشب (يوسف) تلميذ المؤلف للجداول ، وترجمها — من اللسان الرمنص — عبد الله وأسير ذنبه ، الراجي عفو ربه : قاسم بن أحمد ابن الفقيه قاسم بن الشيخ ، الحجري الأندلوسي كان الله له بمنه ، آمين » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الفترة التي نعرضها ، ولحسن الحظ فإن هذه الترجمة مع تعريب الرسالة الزاكوطية ، استمرا معروفين في عداد المخطوطات ، بينما نجهل - الآن - مصير الترجمتين الواقعتين في عهد المنصور الذهبي .

* * *

ونتابع الآن عرض معطيات الجو الثقافي الجديد ، ونشير إلى أن وضع الاحتلال بالمغرب الكبير ، أتاح الظهور لمحاولات تهدف إلى إصلاح الحالة الاجتماعية ، عن طريق أوضاع نثرية أو شعرية ، فكان هناك من يتناول الدعوة إلى الجهاد لتحرير البلاد ، بينما يربط آخرون واقع المغرب بتفاقم البدع ، أو بالانحلال العقائدي أو الخلقي .

* * *

وفي صدد الذين تناولوا الدعوة للجهاد يقول الناصري (١) بمناسبة حديثه عن فترة الغزو الأجنبي بالمغرب الأقصى ، ويبرز انبعاث أدب المقاومة الوطنية :

« . . . ولقد ألف الناس في ذلك العصر التآليف في الحض على الجهاد والترغيب فيه ، وقال الخطباء والوعاظ في ذلك فأكثروا ، ونظم الشعراء والأدباء فيه ونثروا .

فممن ألف في ذلك الباب فأفاد ، الشيخ ، المتفنن ، البارع ، الصوفي أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم بن عجيش التازي ، قال في « الدوحة » وقفت له على تأليف ألفه في الحض على الجهاد في سبيل الله ، فكان مما

(١) « الاستقصا » ، ج ٤ ص ١١٢

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ينبغي أن يتناول باليدين ، ويكتب — دون المراد — باللجين ، أودعه نظماً ونثراً .

وممن نظم في ذلك فأجاد : الشيخ ، الصالح ، المتصوف ، المجاهد : أبو عبد الله محمد بن يحيى البهلولي ، قال في « الدوحة » : كان هذا الشيخ ممن لازم باب الجهاد وفتح له فيه ، وله في ذلك أشعار وقصائد : زجليات وغيرها » .

والتأليف الذي أشار له الناصري لا يزال مخطوطاً في نسختين :(خاصة) يتخللها بتر ، والثانية ضمن مجموع رقم ق ٣٣٦ في الخزانة العامة بالرباط ، وهو يحمل اسم « تنبيه الهمم العالية ، على الصدقة والانتصار للملة الزاكية وقمع الشرذمة الطاغية » .

أما أشعار البهلولي فلا يزال مجموعها غير معروف ، وأثبت في«دوحة الناشر » مطالع ثلاث قصائد منها : ثنتان زجليتان ، والثالثة معربة .

* * *

وإلى جانب الدعوة للجهاد اهتم أبو العباس أحمد زروق الفاسي بنقد بدع التصوف وبالخصوص في كتابيه :

« عدة المريد الصادق من أسباب المقت ، في بيان الطريق القصد وذكر حوادث الوقت » وهو مخطوط متداول .

مع « النصح الأنفع والجنة ، للمعتصم من البدع بالسنة » ، أشار له السوداني (١) .

---

(١) « نيل الابتهاج » ص ٨٥ ، والغالب أن النصح الأنفع عنوان ثان لكتاب عدة المريد . وهكذا جاء عنوان العدة في مخطوطين اثنين : خ . ع . ق : رقم ٧١٠ آخر مجموع ، مع رقم ١٠٤٥ أول مجموع .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكان لاتجاه الإمام زروق تجاوب - أكثر - بالمغرب الأوسط ، فوضع أبو حفص عمر بن محمد الكماد الأنصاري القسنطيني الشهير بالوزان كتاباً في الرد على الشابيين بالقيروان (١) ، مع العلم بأن المؤلف من الآخذين عن الشيخ طاهر الزواوي تلميذ الشيخ زروق (٢) .

كما أن عبد الرحمن الأخضري نظم الأرجوزة « القدسية » ، في التصوف السني والتحذير من البدع ؛ ووالد ناظمها : الصغير بن محمد الأخضري تلميذ مباشر لزروق (٣) .

وستأتي هذه الأرجوزة رابعة المؤلفات التي تناولت بدعاً خاصة ، ونذكر بعدها موضوع أبي محمد عبد الله الهبطي (٤) ، غير أن هذا اهتم

---

(١) « فهرس المنجور » عند ترجمة أستاذه اليسيتني ، مع « درة الحجال » رقم ١١٨٤

(٢) انظر ترجمة الزواوي في « نيل الابتهاج » ص ١٣٠ ، وعند ابن مريم في البستان ص ١١٦

(٣) انظر المهدي البوعبدلي : « الحياة الفكرية ببجاية في عهد الدولتين : الحفصية والتركية وآثارها ، مجلة « الأصالة » ، السنة الرابعة ، العدد ١٩ ، ص ١٤٤ - ١٤٥ ، وقد أشار إلى أن الأرجوزة نشرت ناقصة ضمن « مجموعة الرسائل المنيرية » عام ١٣٤٦ هـ ، غير أنها ليست واردة بالمجموعة المشار لها .

وقد نوه بالأرجوزة الأخضرية أبو العباس الطالب أحمد بن طوير الجنة الوداني ، واقتبس منها ٢٥ بيتاً في شروط الذكر وما إليه ، حسب رسالته : « فيض المنان في الرد على مبتدعة هذا الزمان » ، مخطوطة المكتبة الملكية رقم ٤٠٦

(٤) ترجمته في « دوحة الناشر » ص ٦ - ١٣ ، ولولده محمد بن عبد الله الهبطي « أرجوزة » مطولة في ترجمة والده وأسماء عيون أصحابه ، ولا تزال مخطوطة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بالبدع بصفة عامة في أرجوزته المطولة التي تحمل اسم : « الألفية السنية ، في تنبيه العامة والخاصة على ما غيروا في الملة الإسلامية » ، وهو ينقد فيها المجتمع المغربي على سائر المستويات ؛ ولا تزال مخطوطة .

وبالإضافة إلى هذه الألفية خلف المؤلف نفسه منظومـــات صغيرة ورسائل في التحذير من بدع جبال غمارة ، وقد كان موقعهـا في مجاورة منطقة المد البرتغالي ، ولا شك أن هـذا الجوار للمحتل صار له تأثير في وفرة الدعاة بهذه الجهات ، من أقران أبي محمد عبد الله الهبطي وتلاميذه الذين نهجوا طريقته ـ نظماً ونثراً ـ في نقد الابتداع ، وكان منهم :

أبو البقاء عبد الوارث اليلصوتي (١) . وأبو حفص عمر بن عبد الوهاب الحسني العلمي (٢) وأبو الربيع سليمان الحاج المولي الزجلي (٣) . وأبو القاسم

---

(١) ترجمته في دوحة الناشر ص ٥ ـ ٦ ، وقد أثبت له أبو العباس أحمد بن عرضون ـ آتي الذكر ـ قصيدة زجلية مطولة ضد جملة من مبتدعات قبيله ، حسب « مختصر مقنع المحتاج في آداب الأزواج » ، ط. ف. ص ٢٦ ـ ٣١

وللشيخ عبد الوارث هذا رسالة لاتزال مخطوطة باسم « المسلك القريب الموصل إلى حضرة الحبيب » ، وهو يحمل في مواضع منها على الانحراف الصوفي ، في لهجة قوية يبدو أنها موجهة ضد ابتداع الطائفة اليوسفية سابقة الذكر عند التعليق رقم ٢ ص ٨٣٣

(٢) ترجمته في « ممتع الأسماع » : الملزمة ١٠ ص ٧ ـ ٨ ، حيث يقول عنه : « وكان متين الدين ، صلباً في الحق ، قوالاً به ، لايخاف ـ في الله ـ لومة لائم » .

(٣) له قصيدة في جملة من محدثات قبيله ، أشار لها ابن عرضون في مقنع المحتاج المخطوط ، وفي مختصره المنشور بالمطبعة الحجرية الفاسية ، ص ٣١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ابن علي بن خجو الحســـاني [١] . وأبو العباس أحمد بن الحسن بن عرضون الزجلي [٢] .

* * *

وعلى امتداد المغرب الكبير ظهر ـ خلال الفترة ذاتها ـ استعمال التبغ : بالتدخين أو النشوق ، وكانت مناسبة لظهور أوضاع في الدعوة لرفض هذا الوافد ، فحظره الفقهاء المعنيون بالأمر ، ومن بينهم أبو العباس المقري التلمساني ، وأبو زيد عبد الرحمن بن محمد الفاسي [٣] ، وأبرز هذا الأخير ـ في فتواه ـ عواقب استهلاك التبغ على العملة الوطنية حسب الفقرة التالية .

---

(١) يصفه ابن عسكر عند ترجمته بناصر السنة ومميت البدعـــة ، حسب « دوحـــة الناشر » ص ١٣ ، ويقول عنه ابن عرضون في « مقنع المحتاج » : « ورسائله في هذا المعنى ـ من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ لاتحصى كثرة » هذا بالاضافة إلى ماسجله في شرحه لترجيز مسائل ابن جماعة في البيوع ، حيث نبه على محدثات قبيله ، وشنع على مبتدعاتهم .

(٢) هو مؤلف كتاب : « مقنع المحتاج في أدب الأزواج » الذي يقع في مجلد كبير ، ولا يزال مخطوطاً في نسخ محدودة ، ثم استخرج منه مؤلفه مختصراً نشر بالمطبعة الحجرية الفاسية في ١٢٠ ص ، وقد تبينا من الإحالات على المؤلفين ضمن التعليقات القريبة نماذج من مناهضة ابن عرضون للبدع المنتشرة بين قبيله .

(٣) نقل محمد ميارة نص الفتويين ـ معاً ـ من خط صاحبيهما ، وأثبتهما في شرح نظم تكميل المنهج : ط ، ف : الملزمة السادسة ص ٨ ، مـــع كامل الملزمتين السابعة والثامنة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

. . . . . .

= ومن الجدير بالإشارة أن جواب أبي زيد بن محمد الفاسي ، نشر — بالمطبعة الحجرية الفاسية — في صفحتين من ورقة واحدة ، غير أنه جاء منسوباً لأبي زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي ، وهو سهو واضح من الناشر ، حيث تبينا أن الجواب منقول من خط صاحبه مباشرة ، وناقله تلميذ للمجيب ، وليس تلميذاً لأبي زيد بن عبد القادر ، وإنما هذا من الآخذين عن ميارة ، حسب ترجمته في طالعه شرح العميري للعمليات الفاسية .

وبعد هذا نوضح أن جواب أبي زيد الفاسي جاء للرد على سؤال في الموضوع ، بعث به — من تطوان إلى فاس — ابن أخي المجيب : أبو حامد محمد العربي الفاسي ، وصاغه في أسلوب مطول استوعب أربع صفحات من الحجم الكبير ، وهذا السؤال هو الذي يسميه الإفراني بـ « سهم الإصابة في حكم طابة » ، حسب ترجمة محرره من « صفوة من انتشر » ، ص ٧١

ونعقب — الآن — بكلام في الاتجاه ذاته ، ورد في جواب لأبي سالم ابراهيم الكلالي ونصه بطوله :

« ... وأما ما يفعله سفلة التجار من سفرهم الاقتصادي إلى أرض الحرب ، والدخول تحت حكمهم ، ونقل ذخائر المسلمين من النقود الجيدة وغيرها من أنواع مايستعينون به ويتقوون على المسلمين بسببه ، فلا يحتاج إلى جلب نص على منع ذلك وتحريمه لشهرة ذلك في كل ديوان ، بل مما شاع وذاع عندهم خسيسة قذرة تستدّ من مجرد سماعها الآذان ، وتطيش من فضيحتها العقول والأذهان ، وهي إعمال السفر لبلادهم ، والدخول تحت قهرهم وحكمهم ، بالنقود الجيدة : الذهب الخالص ، والفضة الخالصة ، وأنواع السلاح وما يؤول إليه ، ودفع ذلك في أعشاب الأرض يسمونه بالنار والدخان ، فهي رزية وما أعظمها ، وبلية وما أخسها ، ومحنة عظيمـــة ولا خالد بن الوليد لها . =

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

« . . . ولو نظر إلى ما عرض فيها من إضاعة المال كما هو صورة الواقع لكان صحيحاً وجلياً ، فقد تطوق من ذلك ضرر الإسلام وذويه ، ونفع لأهل الكفر ، بحيث اختصوا بالجيد من سكة الإسلام ، بل واستبدّوا بالكثير من أموال المسلمين ، وفي ذلك ضرر عام يفضي إلى توهين الإسلام وفلّ حدّه ، باستفراغ جلّ ما بأيديهم من عين الذهب والفضة ، وتقوية الكفرة بمثل ما يدهم بما لا ينقص شيئاً من منافعهم وأقواتهم وذخائرهم ، ولا

= ومن أغرب ماحدثني به بعض الثقات من أصحابنا التجار ، بعد أن سألته عن الذهب الجيد الذي كان يتبايع به المسلمون ، وأين ذهب ، وهل هو باق عند الناس في ذخائرهم ، وأين صار ؟ فقال لي : إن التاجر لايختزن الدينار ولا الدرهم لعدم انتفاعه بفضل ذلك ، وإنما يختزن مايكون له فيه ربح . فقلت له فأين ذهب ذهب المغرب كله ، قال لي : عند النصارى دمرهم الله في سلعة الدخان المشوم ، فاستغربت ذلك من قوله ، فقال لي : أحدثك بالواقع لي ، وذلك أني سافرت إلى مدينة سبتة ، أعادها الله دار إسلام ، فأقمت بها قريباً من عشرين يوماً أنتظر سلعة الهند ، لعلي أجد ما أشتري ، فلم أجد شيئاً ، فبينما نحن في انتظار مايظهر من أغراضي ، فإذا بسفن قدمت من عدوة النصارى ، ففرحت ، فلما أرست لم نجد فيها عدا الدخان ، فما كان من صبيحة الغد ، حتى كانت كلها موزونة على ذمة مشتر ، فيها خمس عشرة مائة قنطار ، لم يدفع في ثمنها إلا الذهب الجيد ، وبقيت بعد ذلك من خمسة عشر يوماً مقيماً أنتظر ما نشتري ، فقضيت بعض أغراضي ولم أستكملها بذلة ومهانة ، ورجعت لثغر تطوان فوجدت دخانها كلها قد نفد ، وصار إلى من سخط الله عليه ، فنفدت نقود المسلمين كلها في دخان لا أصل له ولا حقيقة ، ولا منفعة حسية ولا معنوية ، ولا متكلم ولا نكير ، فإنا لله وإنا إليه راجعون » نقله التسولي في « نوازله » ، أثناء باب الجهاد وملحقاته ، مخطوطة المكتبة الملكية ضمن المجموعة الزيدانية رقم ٧٩٨ ، ج ١ ص ١٩٤-١٩٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

من عدتهم وعددهم ، وقد منع الشرع من جلب المنافع إليهم من طعام وشمع ، وأحرى السلاح ، وأيّ سلاح أقوى من الذهب والفضة .

فصار مدارها ومآل أمرها إلى إنجاد الكفرة ، وإقعاد المسلمين عن الدفاع ، وأي مفسدة فوق هذا .

على أنه عاد من ذلك ضرر وحرج في السكة يعرفه أهل المعاملات ، وكفى بذلك كله مانعاً » .

ولاعطاء تحريم التبغ صبغته الرسمية ، حكم به قاضي فاس ، وسجل الحكم عليه بذلك ، واستناداً لهذا أمر المنصور السعدي بإحراق المتداول منها لدى الباعة ، فأحرقت بديوان فاس الجديد[1] .

ونشير — الآن — إلى عالم جزائري كتب في موضوع تحريم الدخان في فترة لاحقة ، وهو عبد الكريم بن محمد الفكون القسنطيني ، وقد ألف جزءاً سماه : « محدّد السنان في نحور إخوان الدخان »[2] ،

---

(١) من جواب مخطوط في نفس الموضوع ، لشيخ الجماعة بفاس : أبي العباس أحمد بن الخياط الزكاري الحسني الفاسي ، مع « النوازل الوزانية الصغرى » ، ط . ف ، ج ١ ص ٢٧٦ ، وديوان فاس الجديد الوارد في الفقرة التي نعلق عليها ، جاء ذكره — أيضاً — في نوازل الشريف العلمي ، ط ، ف ، ١٣٣٢ هـ ، الملزمة ٣٣ ص ٤ ، وهو يورده بتعبير مفسر هكذا : « ... ديوان النصاري كان هؤلاء هم الذين كانوا يتاجرون باستيراد التبغ وبيعه في فاس وغيرها من جهات المغرب » .

(٢) ترجمته في « شجرة النور الزكية » رقم ١٢٠٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ثم لخص منه أبو سالم العياشي [١] ، وكان مما ورد في تخليصه في سياق ذكر المؤلف .

« . . . ثم نقل كلاماً في تحريمه لصاحبه الأستاذ أبي عبد الله محمد السوسي المغربي المتوفى بالجزائر سنة ثلاث وعشرين بعد الألف . . ونقل ما استحضره من كلام جمال الدين مفتي القيروان ، ثم نقل أجوبة في تحريمه منظومة لبعض الفاسيين » .

وفي إطار حركة الإصلاح الاجتماعي الذي نتابع عرضه ، اتجه مفكرون - من المغربين - إلى تجديد الدعوة لتوعية الجماهير - رجالاً ونساء - بالتعريف بالعقيدة الإسلامية ، ولاشك أن هذا جاء في موازارة حركة التبشير المسيحي الذي يواكب الغزو البرتغالي والإسباني [٢] .

وتبنّى هذه الدعوة العقائدية بالجزائر : محمد بن يوسف السنوسي في أوضاعه الكلامية التي أضاف لها البراهين السمعية والعقلية ، حتى يتسلح الموحدون بما يدحضون به شبه الإنكار على عقائدهم .

---

(١) « الرحلة العياشية » ط ، ف ، ج ٢ ص ٣٩٦ - ٤٠٠

وتوجد نسخة كاملة من « محدد السنان » بالمكتبة الملكية أول مجموع رقم : ٦٩٢٩ ، بخط محمد بن عبد الرحمان الحسني التادلي ، كتبه بمدينة طرابلس الغرب سنة رجوعه من الحج الفرض ، وفرغ منه يوم الأحد ٢٧ رمضان عام ١١٧٨ هـ ، نقله من نسخة بها تصحيف وتحريف في بعض مواضعها ، وأيضاً يتخلل المنتسخ بياض في صفحة كاملة منه .

(٢) انظر « تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها » ، تأليف الدكتور شوقي الجمل ، المطبعة الفنية الحديثة بالقاهرة ، ص ١٢١ - ١٢٤

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وبالمغرب الأقصى انتدب للاتجاه ذاته عبد الله الهبطي ، وألف بدوره عقائد مبسطة في مستوى الجماهير من الرجال والنساء والصبيان ، ويقول عنه في « دوحة الناشر »(١) : « وكان كثيراً ما يحض على فهم مدلول الشهادتين بل اتخذ ذلك هجيراً وديدناً لما رأى من استيلاء الجهل على الخلق ، وألف في علم الهيلـلة أجزاء كثيرة ، أكبرها جرماً وأكثرها فائدة : كتاب « الإشادة بمعرفة مدلول كلمة الشهادة » .

واحتذى حذو الهبطي تلميذه أبو القاسم بن خجو الحساني ، وكان يدعو إلى معرفة قواعد الإيمان بالكتابة وباللسان ، ويلقن التوحيد حتى باللهجة الغمارية لمن لا يعرف اللسان العربي (٢) .

ويبدو أن خطر التبشير المشار له ، كان الحافز لإدماج عقيدة التوحيد ضمن الوظيفة الجزولية (٣) ، حيث لا تزال تلتزمها بعض فروع هذه الطائفة المنبثة بسائر جهات المغرب العربي .

* * *

والآن : نتساءل هل خلف المهاجرون الأندلسيون أو الأسرى من الأعلاج تأثيراً في ثقافة هذه الفترة ؟

وفيما يخص الأندلسيين تبيّنا سلفاً ـ أن غالبيتهم وفدوا على الشمال

---

(١) ص ١٢

(٢) ابن عرضون في « مقنع الحتاج » : المخطوط المتكرر الذكر .

(٣) المعني بالأمر هو المعروف « بحزب سبحان الدائم لايزول » ، ويوجد نصه في « النور الشامل » ، تأليف أبي العباس أحمد بن المهدي الغزال ، مطبعة الصدق الخيرية بالقاهرة ، ص ٥١ ـ ٥٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الإفريقي بعدما قضوا مدة طويلة تحت المسخ والتبديل المسيحي ، لدينهم ولغتهم وثقافتهم ، مما لا يترك أثراً للتعاليم الإسلامية ، ولا يستثنى من هؤلاء سوى بضعة أفراد استطاعوا الحصول على درجة من التثقيف العربي في جو من السرية والحذر (١) ، وقد حافظت النصوص على أربعة أسماء من هذه الفئة نعرضها حسب تسلسلها التاريخي تحقيقاً أو تقريباً .

ويحمل أولها اسم الشيخ شعبان ، عالم الأندلسيين الوافدين على تونس ، وأستاذ مدرستهم التي شادوها بعاصمة الحفصيين (٢) .

أما الثاني : فهو الشهاب أحمد الحجري ، سابق الذكر في عداد المترجمين إلى العربية ، وقد ألف — أصالة — كتابين :

« رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب » ، والغالب أن موضوعها وصف رحلته عن الأندلس في هجرته إلى المغرب ، ولا يعرف منها — حتى الآن — سوى فقرات تناقلتها بعض المصادر المغربية .

والمؤلف الثاني الذي وضعه الحجري : هو « ناصر الدين على القوم الكافرين » كتبه — بمصر — باقتراح من عالمها أبي الحسن علي الأجهوري في اثني عشر باباً ، وضمنه مناظراته — بأوربا — مع المسيحيين واليهود (٣)

---

(١) من نماذج هذا الوضع قصة تلقين العربية لمحمد بن عبد الرفيع الأندلسي من طرف والده ، حسب خاتمة « كتاب الأنوار السنية » : المخطوط المتكرر الذكر .

(٢) إتحاف أهل الزمان ، ج ٢ ص ٣٠

(٣) انظر محمد المنوني : « ظاهرة تعريبية في المغرب السعدي » : الدراسة المنشورة بالعدد الأول من مجلة « اللسان العربي » ، ص ٥٥ ، ٥٧

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد قامت المستشرقة الإيطالية : كيليا شارنلي بنشر القسم الخاص بالمغرب الأقصى من هذا الكتاب ، مع ترجمته إلى الإيطالية ، وذلك عن مخطوطته الكاملة المحفوظة بدار الكتب المصرية . وسيأتي - بعد الحجري - محمد بن عبد الرفيع بن محمد الشريف الأندلسي المرسي الأصل ، التونسي المهجر ، المتوفى - بمكة المكرمة - عام ١٠٥٢ هـ / ٤٢ - ١٦٤٣ م ، وهو مؤلف « الأنوار السنية في آباء خير البرية » رتبها على ثمانية فصول ، ذيلها بخاتمة تشتمل على معلومات نادرة تتناول مأساة الأندلسيين بإسبانيا ، وحياة الجالية الأندلسية بتونس ، فضلاً عن معلومات أخرى عن ترجمة المؤلف نفسه ، وعن حاضرة تونس .

ولحسن الحظ فإن الكتاب لا يزال معروفاً في نسختين مخطوطتين : الأولى مغربية بالخزانة العامة بالرباط رقم ك ١٢٣٨ ، في ٣٦٣ ص ، ويبدو أنها بخط المؤلف الذي تولى مقابلتها بنفسه ، وخطه أندلسي أصيل واضح مليح ملون .

وقع الفراغ من تأليف الكتاب - بحضرة تونس - عشية الجمعة سادس شعبان عام ١٠٤٤ هـ / ١٦٣٥ م ، ومن انتساخه أواخر شعبان المؤرخ به في الأصل .

أما النسخة الثانية : فهي تونسية بالمكتبة العاشورية ، ويبدو من وصفها أنها منقولة عن المخطوطة المغربية ، بواسطة أخرى مكتتبة بتونس العاصمة بتاريخ أواخر جمادى الآخرة عام ١٠٤٩ هـ ، ولا يعرف - الآن - مصير هذا الأصل ، وقد كتبت منه النسخة العاشورية بخط تونسي حديث ، بتاريخ الثلاثاء ١٥ صفر عام ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧ م .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

اقتبس من خاتمة الأنوار السنية محمد بوجندار في « مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح »(١) ، وبواسطة هذا المصدر أورد نفس المقتبس الأمير شكيب أرسلان ، في كتابيه الاثنين : « تعاليق حاضر العالم الاسلامي »(٢) ثم « الحلل السندسية »(٣) .

وأخيراً نشر الأستاذ التونسي عبد المجيد التركي — عن المخطوطة العاشورية — مقدمة الكتاب وخاتمته ، ضمن موضوع : « وثائق عن الهجرة الأندلسية الأخيرة إلى تونس »(٤) .

وننتقل الآن إلى المهاجر الأندلسي : يوسف الحكيم ، وكانت له خبرة ببعض العلوم ، ومنها الطب والتنجيم والكلام والفلسفة ، وأقام بفاس ، حيث كان يتردد إلى أبي زيد عبد الرحمن بن محمد الفاسي ، وشهد له بالتقدم في مادتي الكلام والفلسفة (٥) .

وقد يكون هذا مؤلف « النور الباهر في نصرة الدين الطاهر » حيث يسمي نفسه : يوسف بن عبد الله الإسلامي ، وهو يذكر أنه انتقل إلى الاسلام من اليهودية — التي كان من أحبارها — بعد عام ١٠٢٠ هـ/ ١١ - ١٦١٢ م .

---

(١) مطبعة الجريدة الرسمية ؛ الرباط ، ص ٢٠١ — ٢١٦

(٢) الطبعة الثالثة ، ج ٢٠ ص ٢٤ — ٣٥

(٣) المطبعة الرحمانية بمصر ، ج ١ ص ٣٨٠ — ٣٨١

(٤) « حوليات الجامعة التونسية » ، العدد الرابع ، سنة ١٩٦٧ ، ص ٢٣ — ٦٣

(٥) « أزهار البستان » ، تأليف أبي زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي ، مخطوط المكتبة الملكية رقم ٥٨٣ ، آخر الباب الثالث .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد ساق في كتابه — عن التوراة — نصوصاً ناطقة بصحة دين الإسلام ، ولما لم يكن متين العربية فقد ناول الكتاب لقاضي الجماعة بسوس : عبد الرحمن التمنارتي ، فهذب عربيته ، وأتمه يوم الثلاثاء ٢٤ جمادى الثانية عام ١٠٥٣ هـ (١) / ١٦٤٣ م ، والكتاب لا يزال مخطوطاً في ٢٣ ص ، حيث صـــار في حوزة القاضي المرحوم مولاي سعيد بن الحسن بن السعيد العلوي .

وهنا نعيد إلى الذاكرة اسم المعلم يوسف الأندلسي ، الوارد ذكره — سلفاً — بمناسبة قيامه بترجمة رسالة الزيج الفلكي لإبراهيم زاكوط ، حيث نقلها من العبرانية إلى القشتالية .

ويهمنا أن نشير إلى أن هذا يتقدم عصر يوسف الحكيم الذي عاش إلى أوائل المائة الهجرية ١١ (٢) ١٧ م ، بينما كان مترجم الزيج الزاكوطي تلميذ المؤلف زاكوط المتوفى في العشرات الأولى من القرن العاشر هـ ق ١٦ م (٣) ، فلذلك لا يتوقع أن يكون هذا الأخير هو الذي يحمل اسم يوسف الحكيم .

---

(١) « خلال جزولة » لمحمد المختار السوسي . المطبعة المهدية بتطوان ، ج ٤ ص ١٧٧ — ١٧٨

(٢) تعرف فترة حياته من خلال اتصاله بأبي زيد عبد الرحمن بن محمـــد الفاسي ، وهذا كانت وفاته عام ١٠٣٦ هـ

(٣) انظر : محمد المنوني : « ظاهرة تعريبية في المغرب السـعدي » ، بمجلة « دعوة الحق » ، حيث توجد بنشرة هذه المجلة إضافة عن حياة زاكوط : العدد الثالث ، السنة العاشرة ، ص ٨٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وإلى هنا ينتهي عرض أربعة مؤلفات دوّنها - بالعربية - ثلاثة من الأندلسيين في المهجر المغربي ، ومن الواضح أن تأثيرها في الحقل الثقافي سيكون ضعيفاً .

وعلى عكس هذه المؤلفات ننوه بموضوعين سبقت الإشارة لهما ، وخلفا أصداء ملحوظة .

الأول « زيج » إبراهيم زاكوط اليهودي في تعديل الكواكب ، وكان مؤلفه - بالعبرانية - أقام بتونس عدة سنوات ، وصار لترجمة زيجه تأثير في عدد من المؤلفات الفلكية بالمغرب الأقصى (١) .

الثاني : « كتاب المدفعية الحديثة » ، ألفه - بالاسبانية - إبراهيم غانم الأندلسي ساكن تونس ، وهو الذي ترجمه الشهاب الحجري باسم « كتاب العز والمنافع للمجاهدين بالمدافع » ، فأفادت منه المدفعية التونسية كثيراً (٢) .

وإلى هنا يصل بنا المطاف إلى واقع الأعلاج الذين انتشروا بالمغرب الكبير في الفترة التي نقدمها ، وكان أكثر تأثيرهم من جهة الاستفادة من ثقافتهم التقنية .

ومن نماذج هذا أن فرقة إسبانية استسلمت - بتونس - للقائد سنان باشا ، وأشعروه أنه يوجد من بينهم مائتان وخمسة من رجالهم أهل صناعات غريبة ، وقد أمنهم القائد التركي ، واستخدمهم في تفريغ المدافع وسبك

---

(١) الدراسة السابقة نفسها ، مجلة « اللسان العربي » العدد الأول ص ٦٣ - ٦٦

(٢) نفس الدراسة والمجلة ، ص ٦١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

النحاس ، ويعلق ابن أبي دينار[1] على هذا ويقول : « ومن ذلك الزمان كثرت صناعة المدافع بتلك الديار » .

وبالمغرب السعدي استُخدم الأعلاج في تقنيات معامل السكر ، وتشييد الحصون الدفاعية ، وتنظيم فرق من الجيش المنصوري ، وعلمنا — سلفاً — أن بعض الأعلاج — في بلاط زيدان السعدي — كان يعمل في تعريب الكتب من القشتالية إلى العربية .

* * *

وستكون هذه النقطة خاتمة النماذج التي يعرضها هذا البحث ، وفيها خطوط بارزة لآفاق تطوير حضارة المغرب الكبير تأثراً بواقـــع الغزو الأجنبي ، وما واكبه من الهجرات الأندلسية ، والوجود العثماني ، ووفادات أخرى منوعة .

وقد رأينا في تلك النماذج اقتباساً جديداً مسّ الاقتصاد والعمار ، وتناول أنظمة الحكم ووسائل الدفاع ، إلى تجديد في القطـاع الثقافي ، وبالخصوص في انبعاث دراسة العقليات والهندسة والطب ، ومحاولات في حركة التعريب ، إلى مجهودات لتطوير التشريع الفقهي ، وإذكاء الروح الاسلامية وتهذيبها من البدع والمحدثات .

وقد كان مجموع هذه النماذج صالحاً ليكون نواة لبدء انبعاث المغرب الكبير ، والسير به نحو انبثاق عصر النهضة المغربية العربية ، كما بدأ في

---

(١) « المؤنس » ، ص ١٧٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الغرب الأوربي عصر النهضة الحديثة ، غير أن الشمال الأفريقي وقف عند البداية ، ليتيح التساؤل :

- لماذا هذا التوقف ؟
- وعلى من تلقى التبعة ؟
- وما طرق العلاج ؟

أسئلة مطروحة تنتظر الإجابة عنها .

الرباط محمد المنوني

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net